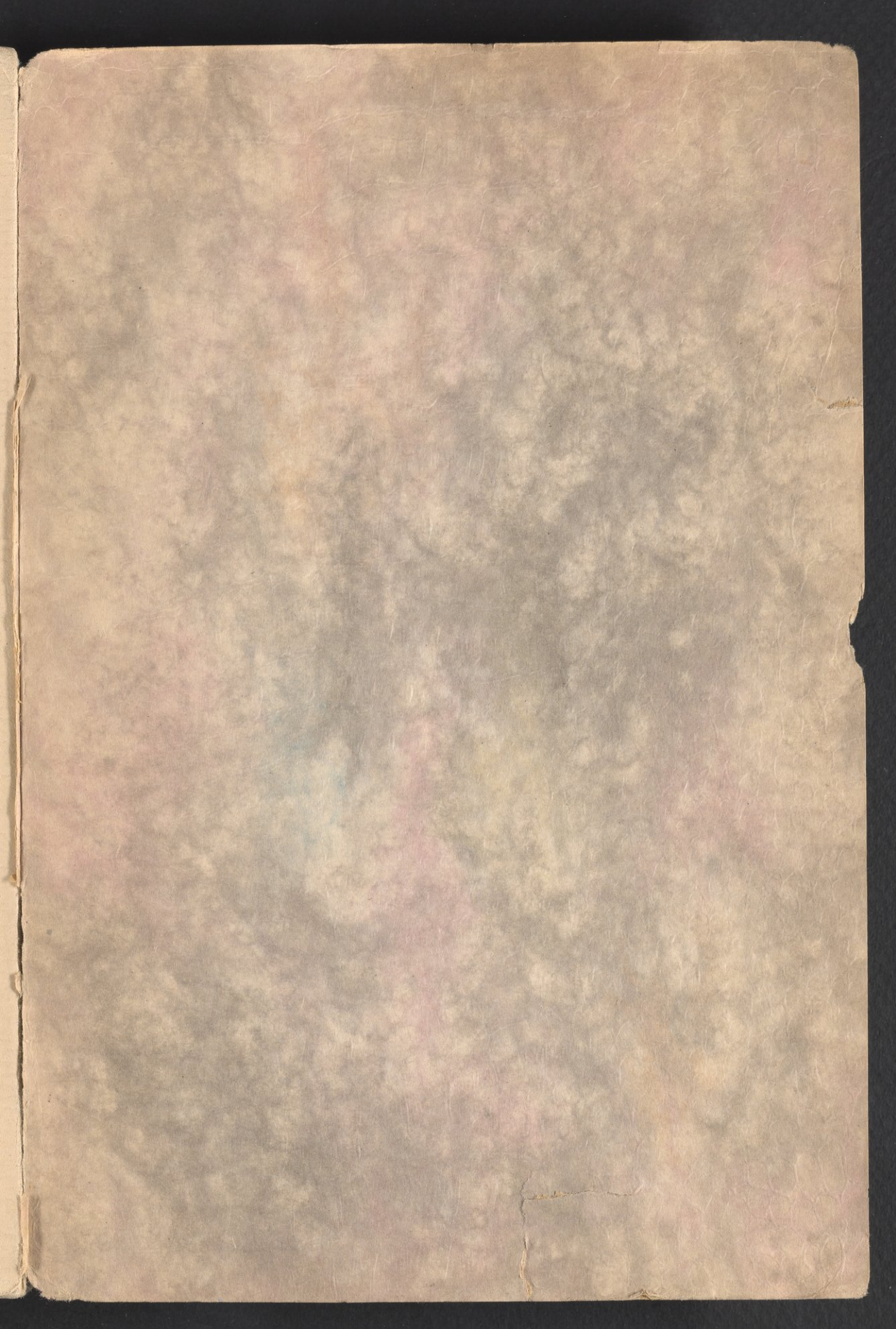


العبيد

تأليف
هين عفيف

مكتبة النهضة المصرية



PJ
7810
F5
A25
1941

إِنَّا خَلَقْنَا لِلْحَرِيقِ
عَلَى شَمْعَةِ الْفِتْنَةِ .

العَبِيدُ

مقطّعات من الشعر المنشور

تأليف

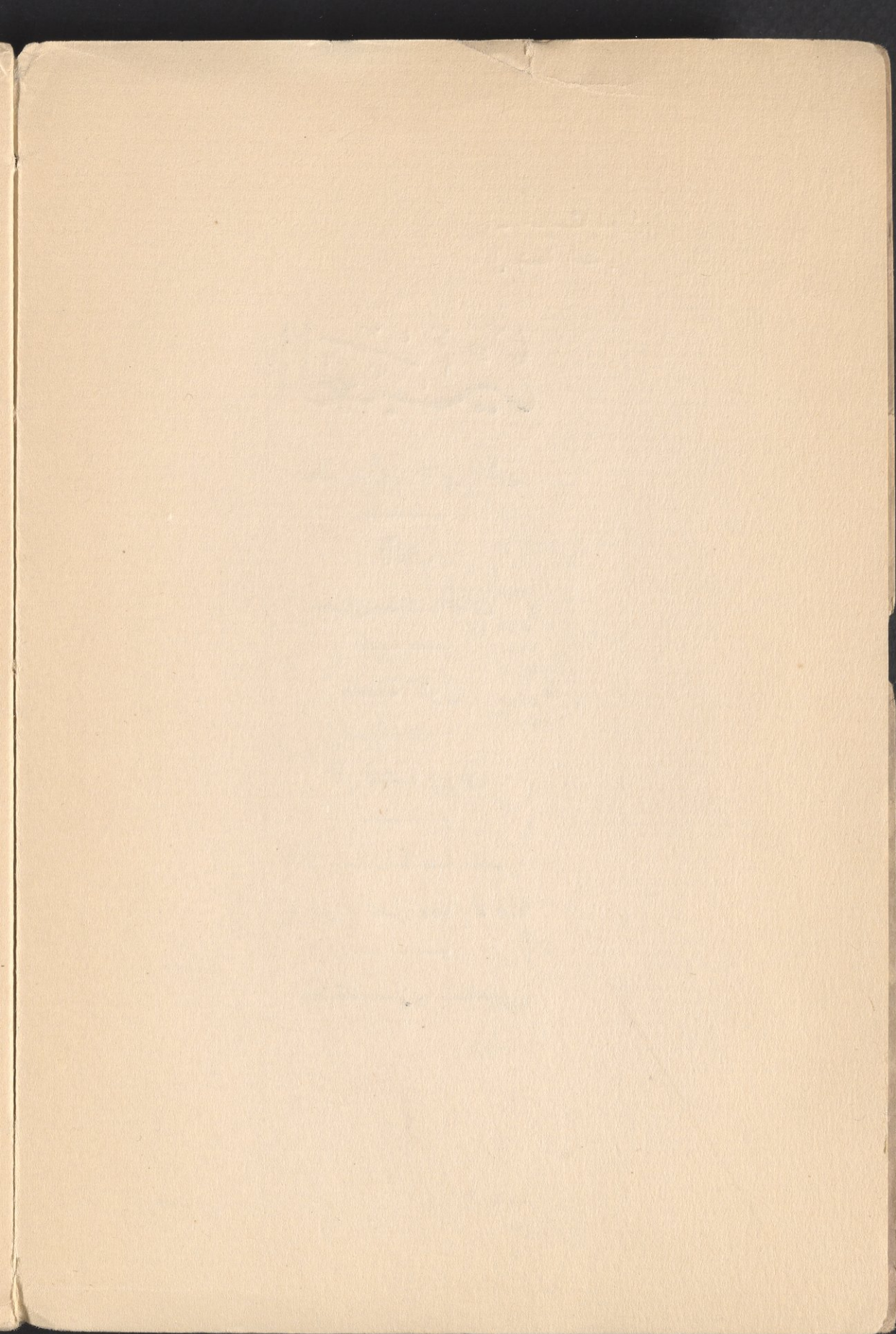
حسين عفيف المحامى

الطبعة الأولى

الثلث عشرة قرّوش

الناشر مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

مطبعة حجازى بالقاهرة



اهراء

إلى روح الشاعر الأكبر

رابندرانات تاجور

العبير

مقطّعات من الشعر المنشور .

من الخيال منسوجة .

على وقع قدميك ، الحزن أنغامي .
وبمحاسنك ، أطلقها تشييد .

يا دائمة التنقل في قلبي آه من وقع
خطواتك السحري !

لولاه ما أوحى إليّ ، ولَمَّا كان لمزماري
ترانيم .

فياحبّذا الوحي أنتِ ألهمتيني ، وياحبّذا
الأغنياتُ أغانيك !

روحي وجيئي بالفؤاد ، وانقلي الساق عليه
ودقيّ بالقدم .

روحي وجيئي به وابعثي الأنغام فيه تلافيف .
كلما خرجت من نايي مع نفسي المحترق ، أرهف
القوم لي سمعهم .

٢

في الغروب ، أبعث إليك أنغامي دامية .
 حمراء من بَرَحِ الشوق ، كأنها من الورد
 ملتصبة .

فاجمعها مع زهر روضك ، فهي منه
 متخبة .

وحذار أن تشؤك بنانك . أو تُدِمِي
 كفك .

فهي في الورد بريّة . وفي الحب شقية .
 لا تبالى إن خَمَشَتْ وجنة . كم ظلمت ،
 أفما تظلم مرة ؟

كما لو كان قلبي قيثارة ، وحبك الأنامل
 التي تداعب أوتارها ! وكلما تناوحت في صدري
 الحان العذاب ، ترنحت وصحت هنيئاً لمن
 أسكره النغم ! لولا أن روحي ما تلبث أن تنوع
 تحت بخاره ، كزهرة الفجر إذ يغمرها الضباب
 الندي . ولكن أترضى زهور الرياض بديلاً
 عن طلبها المسكر ، حتى أكافح لأفيق من
 حبك ؟

أنا من عصرتُ بسماتي على صبحك ،
 وذهبتُ بأحلامي أصيلك . وورّدتُ لكِ
 الشفق بأشواق ، وزرعتُ لكِ الليل شهباً من
 حُرقي .

وملأتُ من دمعى جداول بستانك ، ومددتُ
 من أحزاني ظلاله . وفرشتُ من وردى طريقك ،
 ثم دستُ على شوكة .

ولقد بسطتُ من وسنني مهادك ، وسهرتُ
 أحرسك . وأضأتُ من لهبي شمعك ، واحترقتُ
 على نوره .

فهل سمعتِ بمثلي عاشقاً خلق من جحيمة
 جنة ، ثم قال لكِ ارتعى ؟

الله للقلوب من لحظك المايي ! يخترق
 شغافها بلا رحمة ، ويمزقه شر ممزق !
 يا ألاقه اللحظ خبيثي عن عيني هاتيك
 الجواهر !

خبي ماستين بمحجريك ثببتا ، تبعثان
 الضوء يستل النواظر !
 واذكري أننا بشر . وتقتلنا العيون السواحر .

٦

يذكّرني تكتّني الغصن قدّك . وحياءُ
الورد خدّك .

والأقاحي ثنّياك والبراعمُ ثغرك .
والظّلُّ أهدابك ، والبرقُ الحافظك ،
والدياجي شعرك .

والفواكهُ ريقك المعسول والبلابلُ صوتك .
فيا ساحرُ خبّرني : أكلُّ أسرار الكون
عندك ؟

وهل التعاويذ تقينا هواك والتمايمُ جنبك ؟
إني لأرفض لو تُجدي الرُقسي ، وأود لو
أصبح عبدك !

٧

علامَ البخلُ بفاكهتك ، والضَّئِنُّ بأزهارك ؟
 نظراتي هي التي ضرَّجتُ في خدكِ الورد
 وأنضجتُ بثغرك العُنباب .

سلي لونك الجُوري ، سلي حمرة خجلك —
 يَنْبِئَانِكَ .

إنه حي الذي زفَّ الربيعَ إلى بستانك ،
 وفتحَ بأنفاسه الدافئة براعمه .

إنه نوري الذي حلَّى فواكه ، وصبغ
 بمختلف الألوان أزهاره .

ودمعي الذي رَوَّى تربته ، وكلَّلَ شجره
 بالندى .

لولاي أنا ما اهتز بنبت ، ولا ازدحمتُ
 على أبنك الأطيَّار .

لولاى لذبتْ أغصانه ، وتعثرتْ روحك فيه
كنحلةٍ مَهِيضَةٍ الجناح .

فاحفظي الجميل ما حَيَّيتِ لذلك البستاني .
أكرمي وفادته ، واملئي سلاله مما غرستْ
يداه ، يضاعِفْ لك الجهد ويَهْزِ أرضك كل
يومٍ بنبتٍ جديد .

٨

عندما تلتقي شفتانا ،
 وتنفُض القبلاتُ عنكِ عيبرك —
 تزكّين كزهرة الروض .
 وكوردةٍ تغرقين في حمرة خجلك .
 عندئذ يزيد جمالك أبَّهة .
 لأنه وقد استدار على نفسه ، يعكس منها
 ما خفي .
 إنك زهرةٌ سكّرتُ من عطرها ، فمشى في
 لونها التيه .
 إنك تشربين من خمرك ، لترينا آيته على
 وجنتك .
 وليكنني أنا الذي أناولك الكأس ، وأقول
 لك اشربي .
 قبلي هي التي تجعل خمرتك تفور ، وتسقيك
 حتى الثمالة .

٩

ما أنتِ إلا زهرةٌ مرموقة ، وأنا النحلة التي
 تمتص رحيقك ، وتطير مترنجةً في الرياض .
 فعلى شفقتي منك حلاوة ، وبشدوى طنيني
 تميل .

وهكذا أشرب كأسى من خمرك ، حتى إذا
 أرسلت أنغامى سكرى ، غفسى على نعاسها
 الناس .

في الصباح ، حملتُ سِلَالِي الخالية ، وقصدتُ
إلى روضك .

وطَفِقْتُ حتى انصرم النهار ، أجمع من
خدكِ الخَوْخَ ، والكِرَازَ من ثغركِ .

وعندما عدتُ لداري وسِلَالِي مفعمة ،
أفرغتُها بجانب قلبي ورحت في نومٍ لذيذ ،
كطفلٍ احتضن دُمَيْتَهُ ونام .

١١

عندما تضعين غلالتك الرقيقة ، تبدين شفافة
 كحلم . فيراك قلبي الوسمان ، كبعض رؤاه .
 أحبك حُلماً لأنى ناعس !
 أحبك عبرَ غلالتك ، لتقتحمى منامى
 اقتحامك لخيوطها !
 حبك أسبل أجفانى ، وأسلمنى لسكرى سعيد .
 فأتينى كمثُل هاتيك الرؤى ، واسبحى فى نوى
 كنجمة الليل تونسُ ظلماتيه ، وتقصُّ عليه أنباء
 النهار .

إني أغار !

أغار من النسيم يَلبسُ خدك . ومن السكّاس
تَلثمُ نغرك .

ومن الورد إذا غازلِكِ ومن الغصن إن
طوّقَ خصرِك .

ومن الدجى إن زَجَّجَ حاجبكِ والليل إن
كَحَلَّ جفنك .

ومن النور إذا حَمَّأكِ والعطر إن ضَمَّخَ
جسدك .

والفجر يَسْكُبُ في هواك نَدَاهُ والبرق
يُزجِي من جواه وميضَه .

والطير يرسل من أيكه الآهاتِ والنحل يبعث
بطنينه الهاذى .

كلُّ البريّةِ غرمانى فياويل قلبي ممن شاركونى
فيك ؟

ليت خدك لم يُخجلِ الوردَ وثغرك لم يُزِرْ
بالعنان !

ليت قدك لم يَغْظِ الغصنَ ونهدك لم يَفْلُقِ
الرمان !

ليت لحظك لم يكسفِ الشمسَ ومحياك لم
يبخسِ القمرَ .

ليت شعرك لم يَفُقِ الليلَ ومفرك لم
يَبْزُ الصباح !

ليت كفك لم تَفْضُلِ العاجَ وساقك لم
تَغلبِ الجُمُار !

إذن لنامت عن هواك العيونُ خلا عيني ،
وأحبك الفؤاد بلا شريك .

ولألفسى فى على فمك السلام ، بعد أن سافر
يبحث عن قبلة .

وعلى خصرِكِ ساعدى مرساه ، بعد أن أفلح
يطلب ضَمَّة .

ولعرفتُ الهوى دون الجوى . وعرفتُ
القرب من دون النوى .

ولذقتُ الوصل من دون الهجر . وشربتُ
الشهد من دون العلقم .

ولمَّا أذرفتُ عيني دَمعة . أو ساهرتُ في
الليل نجمة .

وتبسَّمتُ ولم أعرف ما الكدر .

١٣

إن كنتِ زهرة ، فلا تصغى لـكل طائر .
اصغى لي وحدي .

أو كنتِ غصناً ، فلا تميل لـكل ريح .
ميل لي أنا .

لا يتضرعُ خدك خجلاً إلا مني . لا يتبسّمُ
ثغرك إلا لي .

وإياك وأن تذكري غيري . أو يزورك في
الكرى طيفٌ سواي .

أنا وحدي الذي أبـلـبلُ فـكرـك ، وأقنـحـم
عليك منامك .

إني ملـكـتـك بالذي ذرفتُ في سـيـلـك من
دموع ، وأرسلتُ في الدجى من نفـسٍ محترق .
ولقد ملـكـتـني أيضاً بمثل ما ملـكـتـك به ،

وحرّمتنا نفسنا على العالمين .

يَشْهَدُ اللَّيْلُ الَّذِي سَهَرَنَاهُ ، وَأَحْصَيْنَا نَجْوَاهُ
عَدَدًا . يَشْهَدُ الدَّمْعُ الَّذِي سَكَبْنَاهُ أُنْدَاءً جَلَّاتِ
الشَّجَرِ . تَشْهَدُ النَّارُ يَشْهَدُ الشُّوقُ الَّذِي بَعَثْنَاهُ شَرَرًا
يَتَقَدُّ — أَنَا أُسِيرًا هَذَا الْغَرَامُ .

وَلَا كَانَ حَبٌّ لَا يَضَعُ فِي أَرْجَلِنَا الْقَيْدَ .
أَوْ جَمَالٌ لِكُلِّ الْعَيُونِ مَبَاحٍ .

وَلَا كَانَ ثَغْرُكَ إِنْ أَسْلَمْتَهُ غَيْرِي . وَلَا شَفَتَايَ
إِنْ تَذَوَّقْتَا سِوَاهُ .

١٤

أنا وأنتِ إلَافان ، ما نغرد إلا معا . أنا
وأنتِ غصنان ، إن ملنا فلنعتنق .

إن دنا منا فَمَكان ، فلكي ينطبعا . أو رنا
لحطان ، فلكي يلتقيا .

لا نمشي غيرنا . لا نخون حبا . إننا في
هوانا لا نُشرك . إننا لا نعدّد آلهتنا ، وما
ينبغي .

مالنا والقُبَل الحرام ؟ تلك خمرٌ لا نكلمةَ
فيها . حسبنا أكؤسنا . وكفانا ما نشرب . إننا
لم نأتِ على الكأس لنطمع في غيرها . ولن نأتي
عليها ولو عشنا مخلّدين .

قلبي عندك ، وقلبكِ عندي . وكلا القلبين
في بيته .

نحن بدّلنا الديار وما بُدّلت . ثنّينا
القلبين وما تعدّدا .

حبٌّ واحدٌ مزجهما . فإمّا حلّكنا من
منزلٍ حللنا معا . وبأى منتجّعٍ أقمنا فبين
أهلينا .

١٦

أرأيتِ إلى أنك زهرةٌ تَرِفٌ ، وأنى
فراشةٌ ترتعش ؟

فياحبذا إذن في الحب رِعْشَتُنَا ، وياحبذا
الجنون جنوننا !

ويا ما أُحْيَلَى رفيفك يذهلنى ، وظلّ
أجنحتى القلق يتيه على ورقك ويؤوهنه !

إنْ تكونى دَغْدَغْتَ برجفتك إحساسى ، فما
هدأ لك بالٌ مذ سَجَلْتُ عليك ظلالى
رَعَشَاتِهَا .

غير أننا فى قلقنا هذا أجمل منا فى أى يوم
كنا ، ومِنَ الأَلَى ناموا مِلءَ الجفون .

إن فى هزاتنا السريعة لَوْمَضاً يضاعف أَلِيقْنَا .
وفى عذابنا لعنفاً يفجّر فىنا ينابيع نورٍ جديدة ،

تَعَكْسُ أَضْوَاءَهَا بِشَرْتُنَا .

فَهَنِيئًا لِلَّذِينَ حَلَّاهُمُ الْقَلَاقُ ، وَأَحْرَقَهُمْ عَلَى
نُورِهِ السَّحَرَى . هَيَّا رَفِّى وَأَرِفِّى ، وَلِنُوقِدِ
النَّارَ حَوْلَنَا . إِنَّا خُلِقْنَا لِلْحَرِيقِ عَلَى شَمْعَةِ
الْفِتْنَةِ .

١٧

إنك لشرابٌ عَصْرُوهُ من فواكه .
 فيك من الخَوْخِ نَكْهَتُهُ ، ومن الكِرَازِ
 حَمْرَتُهُ . وفيك من العنب نَبِيذ .
 فيك من كل فاكهةٍ كَأْس .
 وإني لأشربُ منك الرشفة ، فتعطّر دَمِي
 وتحلّي مَذاقَ شَفَقِي . ثم تُرَدِّي فـِوَادِي
 سَكْرَان .

١٨

طال انتظاري ولم تحضري . طال انتظاري ،
فبالشب مني سُرود ، وبالفكر بلبال .

طال انتظاري فطفَرَ الدمع الذي كان
هاجعا . والقلب من إعيائه غاص .

طال انتظاري طال ! فغامَ في عيني النهار ،
واكتأب الزهر البشوش .

وكان رقرقةَ النسيم تأوُّهُ ريح . وكان
تغريد الكناريا نُواح .

طال انتظاري فهلكي اليوم حُطام . وأنفاسي
أنفاسي عواصف !

وتركتني وحيداً وما عودتني . ویتّمت
قلبي وكنّت له أهلاً .

ليتك ! ليتك تحضرين ! فللقلم حديثٌ

يود أن يفضى به . وبالجوانح أشواق^ه تتمفرز .
وإن في اللقاء لمجالا . وإن فيه لمتنفسا .

فتعالى حبيبتي ! تعال^ى نهصر^ى القدود تعال^ى
نقتطف^ى القبل .

تعال^ى غنّينى وأغنّيك فى الأشواق . وأسمعنى :
حبيبى وأسمعك : حبيبتى .

تعال^ى جسمى تضعضع والله ! وصبرى وهى .
والضنى من بُعدك كاد أن يقضى على^ى .

عذابٌ هو الحب .
 لأنه شوقٌ مقيم .
 له بالقلب إلحاحٌ كألحاح الظمأ .
 وإن لم يكن كالظمأ يُروى .
 غير أنه عذابٌ جميل .
 لأنه يطلّق الجوانح بالبث° .
 فتتفضّ عنها ما طوت من نغم ،
 ما نلبث أن تغرق في بحره اللّجّجى ،
 فتستحيل أيا منّا إلى ترانيم ،
 وتبدو لنا الساعاتُ وهي تمر° ،
 كأنها عصافيرٌ تمضى من أَيْكَ لَيْكَ ،
 وقد أنشأتُ تغرد .

٢٠

سأشرب أكواب النور التي تنسكب من
 لحظك ، ثم آوى إلى ظل أهدابك الظليل .
 أشدو وأصفق بجناحي كبلبلٍ حطَّ على غصنه
 وهو يمل .

وسألتكم في خدك تفاحي ، وأنشق في ثغرك
 وردى ، لأحلى أنغامي بفواكهك ، وأعطرها
 بعبير زهورك .

حتى إذا ما حنَّ جفني للكرى ، هرعتُ إلى
 شعرك الفاحم ، لأشرب من ليله كئوس نعاسي .
 وعندما يلوح لي في النوم مفرقك كفجرٍ
 آخذ في الشروق ، سأصحو لأشرب من جديدٍ
 نورك وأغتنى .

ابسمي لي ! وأريني فما ينفرج عن أولو !
 ويطفو فوقه نورٌ غير منظور ! كأنه فرحةٌ
 وثبتٌ من قلب ! كما يثب الحبيب إلى حافة
 الكأس ويرقص . ثم يذوب لا نعرف أين غاب
 ولا كيف انبثق .

نورٌ لا كوكب له ! وكأنه أضغاث أحلام !
 غير أنه أسطعُ على فلك من نور كوكبٍ دري .

٢٢

إني لأبعث إلى عينيك بوميض صباقي،
 فيخرج منهما الحاظاً تتألق . وإلى أجفانك بحزني
 فيكحلها بظلاله السود .

ولقد عصرتُ على خدك أشواقي فورَدَّتْهُ .
 وعلى ثغرك قُبَلِي فألهبَتْهُ .

ثم تحيرتُ أنعشَقْتُ حسنك أم تعشَقْتُ
 عذابي؟

ففي — ذلك البلبل الواقف الآن على ربوة
 أنفك الصغير — ينظر وهو تواقٌ إلى حداثق
 الكِرَاز التي تَنبَت في ثغرك !
 سأنشر جناحيّ وأميل كظائرٍ شارفَ الماء ،
 لأهبطَ هذا الوادي المُنوق .

وسأمسّهُ بطرفهما قبل أن أخطّ عليه وألثم
 فواكه ، كما حوّمتُ حمامةً على غدير .
 حتى إذا ما لففتُ مِنقاري عليه ، رنّ في
 الروض صوتُ قبلةٍ غريّدة . وقالوا ثمّ بلبلٌ
 على فننٍ يغنّى !

٢٤

لأنّ طائر الأيكة الذي يغرد في قلبي .
 وإنّي لأسمع زاهلاً أنغامه ، فتتقلنى إلى عالمٍ
 من ضباب ، طالما حننتُ إليه كأنّ كان فيه في
 الأزل مُقامي .

عالمٍ كأنه ماضى روحى السحيق ، أنا أنى
 حيناً عنه الجسد ، لكنه بقيَ في أغوار نفسى
 راسباً . فلما أنْ أغرقنِي في كأس نشوتك ،
 لمسْتُ القاع الذى كنتُ طافياً فوقه ، وارتدّتْ
 إلى مواطن ذكرى التى فارقتُها .

إلى مواطن تبدو كالحُلُم من تحت اللُّجَج ،
 أو كنجمٍ سابحٍ فى ظلام . غير أنها أسطع فى
 نفسى من وهج الشمس ، لأنها أقدم منه مولداً
 فيه . إن بينهما لسنينَ من ضبابٍ نسجه عليها

البعد . فكأن الغيم الذى تتحجب به ، وشاحُ
العراقة الذى به تتشبح . وكأن النأى الذى تظهر
عبره ، آيةُ سكناها قرارى .

وإني لأعشق نورها هذا الضعيف ، كما أعشق
الأحلام وكلَّ شاحب الظل ، لأنه يعود بروحي
إليها .

أفما ترين إلى أنى فررتُ من قيظ الحياة
إلى حبك ، ذلك الغرْدِ المُنَّحِ فى سماءى ، حيث
أسمع منه الأغاني ناعسة ، وألقى ظلاً هناك
وعين ماء ؟

٢٥

وهكذا تأخذك العزةُ بجمالكَ ، فتأينُ إلا
أن تنادينى بعبدك !

نعم أنا عبدك ! أركع عند قدميك كما يركع
الوثنى .

إن لك لَسِحْراً آمراً . فما ذنب قلبي إذا
هرع يلى ؟

فيمَ يأمر الحسن ، إن نحن حررنا العبيد ؟
وما بقاء العبيد ، إذا هُم عن تسليحهم كفوا ؟

كلُّ مسخَّرٍ لِمَا خُلِقَ له . فلئن
عبدتُك حتى مست هامتي التراب ، فما فعلتُ إلا
ما ليس لي بعصيانهِ سبيل ، وما أَرْضيتُ إلا
شهوةً في نفسى .

حبيبتى هى روضتى .
 هذى الرياضُ نَسَبوها لها .
 ما الورد إلا ثغرها الجُورى .
 والخَوْخُ إلا خدها الخمرى .
 أنفاسُها العطرُ تَضَوِّع .
 والرحيق ما سال بين ثناياها .
 وإن العناب لَيَنْبِتُ فى أناملها .
 وعلى صدرها ينضج الرمان .
 ومن الجَمَّار ساقُها .
 وغصنٌ قدُّها .
 وأمَّا العينان فبحيرتان ،
 عليهما من أهدابها ظل ،
 ومن خواطرها عصافيرُ تصفق .
 وفى جيدها بلبل ،

يشدو فتخالها تتكلم .
 وكثوس فضة ،
 لها إذا ضحكت رنين .
 وكأن بسمتها الصبح .
 وكأن دمعها الأنداء .
 وإذا لفّني شعرها في ليله ،
 أضاء عليّ من جبهتها قمر ،
 أتسلق إلى الخلد شعاعه ،
 كما لو كنت حقاً ببستان ،
 في ذات ليلة مقمرة .
 وهل هي إلا بستانى ؟
 وهل القمر إلا هي ؟

٢٧

بدأتُ إسرائي من دُجَى شَعْرِكَ ، وبقلبي
صبوةً وبعينيَّ وجد .

ولبثتُ أَسْبَحُ في ليلٍ بَلِيلٍ ، لا يضيئه إلا
بصيصٌ من مَفْرَقِكَ .

وإذ تُقَتُّ أن أَعْفَى عليه ، كحلتُ جفني
بمروده ونمت .

إلى أن تَبْلَجَ من وجهك الصبح ، فصحوتُ
من نومي أتمَّ الرحلة .

ومشيتُ فوق جبهةٍ بِلَوْرٍ . وجزتُ
دَغَلًا من حاجبك وظلَّلتني منه ظِل .

بعدئذٍ سَطَعَتْ من لحظك شمس . فمَلَأَتْ
كأساً من نورها شربتها وسكرت .

فرايتُني أصدد ربوةَ وجنتك . ورأيتُني

أَجْمَعُ مِنْ أَيْسَكِهَا الْخَوْخَ .

ثُمَّ هَبَطْتُ ثَغْرَكَ ، فَإِذَا بِهِ لِلْوَرْدِ بَسْتَانِ .
وَمَا أَلَسَى نَبْعاً فِيهِ قَاعُهُ لَوْثُ . وَبِهِ مِنْ
لَمَّاكَ بُحُورُ فِتْنَةٍ .

فَقَطَعْتُ مِنْ وَرْدِهِ ، وَشَرِبْتُ مِنْ شَهْدِهِ ،
وَمَضَيْتُ .

وَبَلَغْتُ ذُقْنِكَ . فَطَابَعَ حَسَنُكَ . وَأَشْرَفْتُ
مِنْهُ عَلَى مَنْجَمٍ مِنْ مَرَمٍ :

وَكَانَ جِيدُكَ فَبَارَكْتُ حَجَرَهُ . ثُمَّ لَاحَ مِنْ
نَهْدِكَ الرِّمَانُ :

وَكَانَ حُلُوءاً فَمَلَأْتُ سَلَةَ . وَحَمَلْتُ فَاكِهِتِي
وَسَرَفْتُ .

وَزَادَ سَكْرِي ، فَضَاعَ رَشْدِي ، وَلَمْ أَدْرِ أَيْنَ
مَضَتْ بِي الْقَدَمُ .

ثُمَّ أَفَقْتُ ! فَرَأَيْتُنِي أَهْبَطُ عَلَى عَمُودِ رِخَامٍ ،
عَرَفْتُ فِيهِ سَاقَكَ الْبُضَّةَ .

وإذ وصلتُ لقاعدة الصنم ، قيل لي إنها
قدماء . وكنتُ عبدك فرسغتُ وجهي فيهما
وبكيت .

٢٨

إِنَّ يَكُ ثَغْرِكَ زَهْرَةً ، فَرُوحَكَ الْعَطْرُ
الَّذِي زَكَّاهَا .

أَوْ جَفْنِكَ لَيْلًا ، فَرُوحَكَ الْوَسْنُ الَّذِي كَحَّلَهُ .
وَهَبِي قَدَّكَ غَضْنَا ، فَرُوحَكَ الرِّيحَ الَّتِي
ثَنَّنَتْهُ .

أَوْ صَدْرِكَ مَرْمَرٍ ، فَرُوحَكَ الضَّوْءَ الَّذِي
نَوَّرَهُ .

عَلَى نَغَمِ رُوحِكَ ، وَقَعَّتِ مِشْيَتُكَ .
وَبَايَحَائِهَا ، وَزَعَتِ لَفَاتَاتِكَ .

رُوحَكَ كَانَتْ الْحَبَّةُ الَّتِي أَنْبَتَتْ جَسَدَكَ ،
وَفَرَّعَتْ أَعْضَاءَهُ عَلَى أَبْدَعِ صُورَةٍ .

وَهِيَ الَّتِي عَصَرَتْ نَفْسَهَا فِيهِ ، وَأَمَدَّتْهُ

بألوانه ونسكته .

جماله شاهدٌ عدلٌ على لطفها . فلين
أحبته ، فما أحببتُ إلا روحك فيه .

٢٩

قُومِي لَاعِبِي الْبَيَانِ . وَاَنْهِي سَمْعِي فِي أَثَرِ
أَنْغَامِكَ ، وَهِيَ تَشْرُدُ مِنْهُ كَالْعَصَافِيرِ .

وَإِذَا مَا خَرَجْتُ مِنْ النَّاْفِذَةِ تَعِيْثُ فِي
الْحَدِيْقَةِ ، فَخَيْرِيْهِ أَيْقِفُو أَثَرَهَا أَمْ يَبْقَى لِلْأَسْرَابِ
الْأُخْرَى ؟

وَهَلْ تَفُوتُهُ وَهِيَ تَهْزُ الْأَغْصَانُ وَتُقِيمُ قِيَامَةً
الْمَوْجِ عَلَى سَطْحِ الْبَحِيرَةِ ، أَمْ تَفُوتُهُ أَخَوَاتُهَا
وَهِيَ تَعْبَثُ بِسِتَائِرِ الْغُرْفَةِ وَتَمِيدُ بِجُدْرَانِهَا ؟

اضْرِبِي الْأَوْتَارَ ، أَوْ اضْرِبِي قَلْبِي ! وَاَنْهِي
بَصْرِي فِي أَثَرِ أَصَابِعِكَ ، وَهِيَ تَتَنَقَّلُ فَوْقَهَا
وَتَبْذُرُ الْفَتْنَةَ هُنَا وَهُنَاكَ .

عَاجٌ عَلَى عَاجٍ ! تِلْكَ أَصَابِعُكَ فَوْقَ بَيَانِكَ .
غَيْرَ أَنْ عَاجَهَا لَدُنْ ، وَتَزِينُ أَطْرَافَهُ أَصْدَافٌ

لونها عُنَابِي. وبالخنصر منه خاتمُ فضّه
ياقوت.

هَيَّا وأشعلِ النار في مَجَامِر العزف ، تشعلِ
شوقِي . وتتركيني كَفَرَاشَةٍ تَطْرُب وهي تحترق .

ودوسى البِدَال — تدوسيني أنا — كلما
أردتِ أَنْ تَعْلَيَ بالنغم أو تخفُتِي به ، لتأرجحي
جسدي على موجاته ، وتجعليني كما لو كنتُ
ثُبَّتُ إلى زُمْبُرُك .

وتثنَّى ! وميلي بقـدك المياس ذات اليمين
وذات الشِّمال ، ورقّصي عقلي معه .

ثم انظري لي بين حين وآخر وابسمي ،
لترى أثر عبثك بي ، وتقرئي على وجهي أني
أبغى المزيد .

٣٠

حبذا أنتِ جالسةٌ تغزلين ، وظهرك لي !
إني لآتسلل من خلفك خفيةً ، لأطبع قبلةً
على شعرك .

ربّاه ! أية لطمَةٍ من كفك الناعمة نالت
وجهي !

تقدمتُ ما فطنتُ إلى أن حيلتي انكشفتُ ،
وإلى أنك كنت ترينني في المرأة وتغالبين
بسّمك .

فلما لم يبقَ بيني وبينك إلا ما بين الشّفة
والكأس ، فاجأتني المفاجأة التي أضحككتك
ودغدغتُ حسّي !

وهكذا سطوتُ على الدار التي لم يكن بالنيام
أهلوها ، ف وقعتُ في قبضتهم !

وهكذا أُوخذ في الشُّرك الذي نصبتُه لك
يا مأكرة! ولكنه كان شركاً من حرير،
عوّضني خيراً عن قبلي التي لم تقطّ ف.

٣١

أحبك باكية ! مِنْ شوقِ بكِ بَرَّحَ أو
جوى .

أحبك باكية ! وأنهار الدموع تسيل على
خدك . ثم تسقط قطراتٍ تَرِفُ في الضوء
وتحدّث عن لوعتك .

أحب أن ألصق وجهي بوجهك المحموم ،
وفي جحيم عذابك أمرّغه . وأمرّ بقمي على
وجنتك المبللة ، وأشرب من جداول الملك .

أحب أن أضم إلى صدرى صدرك المنتفض ،
وأترك كياني يرتجّ فوق بركان ضناك . وأدنى
من أنفك أنفي ، وأنشق من عواصف حرّقتك .

أحب أن أرنو إلى فمك وهو يرتجف كما
ترتجف حمامة مقلّوبة . وأستمع إلى صوت

فشيحك كما أستمع إلى بحّات ناي .

أحب ، أحب ، أن أشهدك بين يديّ
تتعذّبين ، ثم أذوب حناناً من أجلك وأبكي .

حتى إذا ما شَفينا شهوةً للبكاء ، وغسلنا
معاً بالدموع أحزاننا المبهمة ، نهضت أسألك
الصفح وأجفف دمعي بمنديلي الحرير .

ثم آخذُ بين ذراعيّ جسدك اللدن ، وأربّته
وأغمره بالقبل .

وعندئذ يهدأ بعد الثورة خاطرك . فإذا ما
رفعت إلى عينيّك وتبسّمت ، كنت كالشمس
أشرقت غيباً المطر .

٣٢

إننا في هذه الدنيا، لا نحيا في فراديسنا
المشودة.

إننا فيها مغتربون .
ولكننا نُمنح في ساعات النشوة ،
نوافد نطل منها على تلك الجنان .
فترأى عند العناق وإبان القُبُل ،
مسرعةً في نظراتنا الوامضة ،
كما نراها طافيةً على بسماتنا ،
أو رجراجةً في قطرات الدمع .
عندئذ نهتف هذه فراديسنا رُدَّتْ إلينا !
ونسجِّل بيد الحب تلك اللحظات التي تجعل
لحياتنا قيمة .
والتي بها عمرنا يقاس .

٣٣

إذا أقبل الشتاء بِقَرَّهْ وعواصفه ، فتلبدت
السماء بالغيوم واختفت الشمس وراء السحب .

ولإذا ما ارتعشتْ بالموج أسطُح البحيرات ،
وتغطى الأديم بورق الشجر المتساقط .

وإذا ما أمالت الحشائشُ رعوسها للرياح ،
وتعالى حفيف الغصون تحت هبوبها .

وإذا ما أخذ الطيرُ يجتاز الفضاء مسرعاً إلى
أعشاشه ، أو لوى عنقه تحت جناحه وانكمش .

وإذا ما أوقد القرويون النار في الحقول
والتفوا حولها يصطلون ، على حين خرج آخرون
على ظهور الدواب وقد تدثروا بعباءاتهم .

وإذا ما شوهدت النسوة يحملن سلات
الخُضَر أو يملأن الجرار ، وقد جعلتْ

أسنانهن من البرد تصطك° .

وإذا ما انتفخت بالهواء أشرعة المراكب ،
وتأرجحت زوارق الصيد فوق العُباب .

وإذا ما بدا الشاطئ النائي عبّر الضباب
كأنه أشباحٌ تشاءب عنها الأفاق .

وإذا ما خرجنا معاً إلى الطريق الخلوى
تتمشى بين بساتين البرتقال .

وإذا ما طوحت بوشاحك الريح اللعوب ،
وحسرت عن ساقك البضة ذيل ردائك .

أو هبت زوبعة فأطارت قلنسوتك ،
ودحرجتها في الطريق مسافات .

ثم حلت أخرى غدائرك ، وأخذت تداعب
بأطرافها جفنك الكحيل .

وإذا ما ألهب البرد دماءك فبدا خدك في
لون الورد وبنانك في حمرة العناب .

وإذا ما ارتسم على وجهك القلق من جرّاء

ذِيَّكَ الصَّرَاعَ ، فَبَدَا تَيَّاهَاً عَلَيْهِ تِيهَ ذُبَالَةَ
المصباح .

عندئذ سَأرى جَمَالَكَ فى أَبْدَعِ صُورَةٍ ، بَعْدَ
أَنْ يَعْكُسَ الْقَلَقُ عَلَيْهِ أَفْتَنَ أَسْرَارِهِ .

وَأَتَشَفَّى فِىكَ يَا مَنْ عَذَّبْتَنِى ، كَلِمَا أَثَارَتْ
وِطَاءَةَ الرِّيحِ أَوْ الْبَرْدِ حَنْقَكَ .

٣٤

حبذا أن تمطر السماء ونحن تتساق شجرة !
 عندئذ سيغطي جسدك نِشَارُ الأزهار التي
 يسحقها المطر ، وقد طفا فوقها زبدُها الأحمر .
 وستعانقك الأغصان التي غسل الماء خضرتها ،
 وتعصر في قلبك بسماتها النقية .

وستشرئبُ أعناقُ العشب لتلتقط القطر المعطر
 الذي يتساقط من جسدك .

وستتجاوب نقراتُ الماء على الورق ، مع
 خرير السيول على الجذوع ، كما تعقب دُفٌّ
 كمنجاة .

وستتفضل الطيور المختبئة بجوارنا لتنحى عن
 ريشها البلى . وتجوس الزواحف خلال الأفنان
 باحثةً عن ملاذ .

وستدخل القواقع مَحَارِها . كما تجاهد
الحشرات لتشق لها طريقاً وسط مَنَاقِيعِ الماء ،
على حين تقبّع أخرى منكشّةً بين لفائف الورق .

وسترنّ خلاخيلك وأساورك وأنت تتنقلين
من غصن لغصن . وتُسمَعُ خشخشةُ الفروع
التي تتركبها بعدك تهتز .

ثم يومض البرق فيتألق الخاتم بإصبعك .
ويقصف الرعدُ فيتعالى عواء الحيوانات المروّعة ،
وتقفز الضفادع هلعاً إلى الماء .

وهنا تصيحجني بي أن أنجدك ، وقد أفقدك
الخوف توازنك فأشرفت على السقوط .

فأخف إليك وأحملك بذراع ، هابطاً الشجرة
بالأخرى في خفة النّـمـير .

ثم أنطلق بك عادياً فوق الأعشاب ، والسيّل
يغمرنا ، والبرّدُ يَـمـطـرنا وابلُهُ .

حقى إذا ما أومنا إلى أقرب خُص ، جفقتُ
 جسدك بمنشفةٍ حرير ، وبعثتُ إليه الدفءَ
 بقبلاقي .

٣٥

خلّى المدن ، واصحبيني إلى الغاب .
 هنالك أكسوك من ورق الموز ، وأجعل من
 الفل النضيد عقودك .
 وأصيد لك البط وأطعمك شواءه . وأعصر
 لك العنب وأسقيك نبيذه .
 وأقتلع لك القشاء من الأرض . وأتسلق
 الأشجار وألقي لك منها بالجوز .
 وأصحبك إلى النبع حيث نستحم ، وأنشّف
 جسدك بأوراق الورد .
 وأجلس في الضوء أمشطك ، وأعقد الخوص
 المجدول على مفرق شعرك .
 وأخذ قدميك في يدي وأعصر فوقهما زيتونا
 وبنفسجا .

وأصبغ بعصير العنّودم الأحمر شفّيتك ،
وأطبع عليهما قبلاً دموية .

وأسقيك من كفتيّ ماء . وتطعميني من فمك
فواكه .

وتغنيّ لي أغنية الغاب . وأرقص لك
رقص الهمّج .

ثم أحملك بين ذراعيّ وأجوس بك خلال
الأدغال .

وكلما حلّ بيّ التعب ، جلستُ أدلك
وأتلقي خمّشاتك كما لو كنتِ البريّة .

وفي الليل أنعسك بين أعواد الخيزران ، حتى
لا تراك الوحوش .

وأقوم بجانبك أحرسك ، أو أنام وعينيّ
كعين الذئب يقظة .

فإذا دهّمنا الوحش على رغم الحذر ، انبريتُ
أذوده عنك وبسهاى أصميه .

فإن نجونا ففضلٌ من ربنا . أو ممتنا كينا
قد تذوقنا الحياة .

اصحبيني إلى الغاب . وستعشقين هناك حياة
البريّة . كما ستعشقين وحشك الظريف .

٣٦

حان السفر ، ودق ناقوسُ الفراق ، فإذا ما
شمسُ اليوم غابت ، لن نعود نلتقي .

فيا طيرُ صَهْ ، ويا زهورُ اذبلِ ! وقِفْ
يا نسيمُ ، ويا روضُ أغلقْ أبوابك ، فلن يعود
يطأ مَماشيك الحبيب .

وانزوِ يا قلبُ والزمِ ركنك ، وافتحْ لك
فيه طاقةً وأطِلَّ منها على ماضيك ، وارقبْ
في ضمير الزمان خيال نجمك .

وقُلْ تُرعى يا زمانُ تعود ويا نجمُ ترجع
أفَقَك ؟ وتسير لي ليلَى البهيم كما نورت
عندك ؟

٣٧

أَيْنَ ذَهَبَ الْبَلْبَلُ الَّذِي غَرَدَ لِي ؟ أَيْنَ ذَهَبَ
مَنْ أَسْكَرَ أُذُنِي ؟

إِلَى أَيِّ رَوْضَةٍ طَارَ ؟ وَلِمَنِ الْآنَ يَتَغَنَّى ؟
لِلَّهِ اللَّهُ ! عَلَّقْتَ أُذُنِي بِكَ ، ثُمَّ تَرَكْتَنِي
وَمَضَيْتَ ! عَلِمْتَنِي عَشْقَ النِّعَمِ ، وَغَدَرْتَ بِي !
لَيْتَنِي أَعْرِفُ رَوْضَكَ ، فَأُخَفَّ إِلَيْكَ !
وَاسْتَغْفِرَكَ مِنْ ذُنُوبٍ لَمْ أَجْنِهَا !

لَمْ جَفَوْتَ ؟ هَلْ اسْتَهْوَتْكَ أَزْهَارُهُ أُخْرَى ؟
أَلِكُلِّ الزَّهْوَرِ تَرْسِلُ شِدُوكَ ؟ أَوْ كُلِّ ذِيَاكَ
الْحُطَامِ ضَحَايَاكَ ؟

إِذَاكَ فَلَقَدْ عَرَفْتُ لَمْ يَذْبُلُ الزَّهْرُ . وَلَمْ
يَصْفُرْهُ الْوَرَقُ .

وعرفتُ لمَ تناوحتَ الرياحَ ، ومياهُ الغدران
تأسنَ .

إنك أنت السبب !

أنت تُضَرِّجُ الوردَ بالحنجَل ، لتستلَّ دماؤه
وتطير .

أنت تستخفُّ النسيمَ فيترقبُ ، لتتركه بعدك
عواصف .

أنت يا سرَّ السعادة والشقاء !

٣٨

مع رَكْبِ الغروب ، تسافر إليكِ أناشيدى .
موردةَ الأشواقِ فى الشفقِ الوردى . تُضَرِّجُ
فى طريقها الورد ، وتخضَّبُ العُنباب .

يا من أثنيتِ نغمى بالجراحِ بُحَّ نايٍ من
طول ما نوح ! أفحتمْ على أن أحرق عليه
أنفاسى ، لأصبغ الفواكه لك والزهر ؟

إن كان هذا ففداءُ حبك أنفاسى وما أسفك
من دمي . أفمن عشيق فى خدك الورد وفى ثغرك
العنباب ، يضمنُ عليهما بدماه ؟

٣٩

قم أيها الشاعر الحزين وبارحْ وحدثك .
 قم غنّ واعطفِ القلوبَ ، وابكِ وواسِ
 الموجعين .

فالعاشقون في الرياض انبثوا في انتظار ترنيم
 أرغُنْكِ ليوقعوا على نغمه قبْلهم . والأشقياء
 دُورَهم لزموا في انتظار نواحه ليهيجوا دمعهم .
 قم فلقد تفتح الزهر ورنا قلقاً ينتظر من
 يغزله . وشدا الطير وتوقّف يتربّب من يجيبه .
 قم عانقْ بشدوك الجدول المنساب وخاصرْ
 بنغمك الموج الراقص .

قم حرّكْ نسيم الصّبا وأودِدِ الغصن ودحرِجْ
 من فوق ورقه الأنداء .

قم أَوْحِ للزهر أن يتنفس رِيَّاهُ وللشجر أن
يتشاءب بسماته .

وأطلق النحل من خلاياهُ يَنْزُ للزهور ،
والفراش من مخابئه يذهبها برفيفه .

ومرّ الفلك تَقْلَعُ من مراسيها وقد
نشرتْ أشرعها البيضاء كأجنحة الحمام ، وبعثرها
واضربُ بمجاذيفها الموجَ يتساقطُ على صفحاتها
قطراً كالدموع .

قم ولا تكسرْ قلوب مريديك ولا تيتَّم
بهجرتك حسنهم .

قم لا تُخرسْ عن البوح السنة العاشقين ،
ولا تُمِتِ القُبُلَ الفريحة على شفاههم .

قم ولا تُسكِتْ في قلوبهم الخفق الحنون ،
ولا تطفئْ في عيونهم الدموع الآلافة .

قم لبَّ دعوة الداعي إذا دعاك ، وحرِّكْ
بشدوك كل شيء وباركْ كل شيء .

قم انفِ عن عين الكون الرقادَ وأرقِّ
بالحب والعذاب فواده .

وأذعْ بمزمارك سره المدفون وأرسله بحيث
ينوء بالجمال أينما حلَّ ويدعو للمحبة .

٤٠

تعال يا ناي أقبلك . أجمل الأنعام أغانٍ
تهديها قبيلنا .

تعال أفضى أسرارى على فمك ، وأحرق
أنفاسى على نارك .

أنا قلبٌ يذوب على شفئك ويحترق . ولقد
ذاب أكثره والقليل ما بقى .

ابحثوا عنى غداً فى الرياض ، تجدونى أغنيةً
شاكية ، أو عطراً يضُوع .

فاسمعونى وانشقوا عبقي واعذروا . وقولوا
رحم الله عاشقاً أحبَّ فذاب !

٤١

رَقَصَ الْغَيْدُ عَلَى نَائِي فَمَا لْخُصُورِهِنَّ عَلَى
حَرَامٍ؟

وَتَكْحَلْنَ بِأَحْزَانِي فَمَا لِي لَيْسَ لِي ذَاتُ جَفْنٍ
كَحِيلٍ؟

وَلَقَدْ مَشَيْنَ عَلَى وَرْدِي وَمَشَيْتُ عَلَى شَوْكِهِ!
وَشَرِبْنَ نَبِيذِي وَشَرِبْتُ الْعَلَقَمَ!

إِنْ تَمِلْ لِلزَّهْرِ أَغْصَانُ فَلَـ قَلْبٌ يَمِيلُ .
يَتَشَهَّى الْحُبَّ وَلَا يَجِدُ الْخَلِيلُ .

لَا تَكُنْ صَخُورًا وَالصَّخْرَ يَلِينُ . فَلَقَدْ أَرِقَ
النَّجْمُ لِسَهْدِي . وَبَكَى الطَّلُّ لِدَمْعِي . وَالطَّيْرُ لِنَوْحِي
نَوَّحْتُ . وَالرِّيَّاحُ عَلَى تَنَاوَحْتُ .

٤٢

على فمِ مزمارى ، يفشى ضميرُ الكون
سرّه في أغنية . تطير وتطوى البقاع كحمامة .
في نوحها وجدّ وفي بحة صوتها جراح .

وكلمنا مرت بقوم هتفوا وهتف الزهر معهم
والفراش : يا حبّسها ! ذا سرّنا المكنون باح
به هديرها وعليه نمّ خفقُ جناحها . فعلبتنا مذ
رجعت ما الهوى ، ورفعت بيننا حواجز
يا طالما ظلت مغلقة . وإنّا لنا بذنون منذ اللحظة
الأحقاد وجاعلون الحبّ ديننا والحسن قبيلتنا
في صلواتنا .

وإنّا لراقون إلى الخلد على نور فرحته ،
أو ساجدون إليه في بحور دموعه . ومبلّغون المنى
بصعودنا ، وواجدون في ربّاه مهودنا .

فوالله ما جئنا الحياة إلا لنعود بالروح من
حيث أتينا ، وما قدمناها لنتصق بأرضها فنسفك
الدمَ ونمكّن للفتنة والاحقاد .

إنما الأرض موطنُ الشيطان فمن يَكُنْ
ملكاً وجيءَ به إليها ، فلا جُنّاحَ عليه إنْ
هجَرها ، راقياً إلى العلا بفؤاده ، راكباً في
رَقِيهِ مَتْنِ الهوى ، أو متساقاً جبيل نوره
السحري .

٤٣

رَقَصَ الْغَيْدُ عَلَى نَائِي فَمَا
 لِدِرَاعِي تَحْرَمَ الْخَصَرَ النَحِيلُ ؟
 وَتَكْحَلُنْ بِأَحْزَانِي فَهَلْ
 نَهَلْتُ عَيْنَايَ مِنْ جَفْنٍ كَحِيلُ ؟
 هُنَّ يَمْشِينَ عَلَى وَرْدَى وَأَمْ
 شَى عَلَى الشُّوكِ وَفِي خَطْوَيَّ عَوِيلُ
 إِنْ يَمِيلُ لِلزَّهْرِ غَصْنٌ فَاذْكُرُوا
 أَنْ لِي فِي أَضْلَعِي قَلْبًا يَمِيلُ
 يَشْتَهِي الْحُسْنَ وَيَهْوَى لثَمَّهُ
 فِي رُبَا الرُّوضِ عَلَى الظِّلِّ الظَّلِيلُ

٤٤

عندما يَدُق الجرسُ في جوانبِ إرْزِيْزِيْ،
 فَاتَّناوَلُ المِسمَعَةَ لِأَصْغِيْ لَكَ،
 لَا أَدْرِيْ أَيْ طَائِرٍ مَّجْهولٍ يَغْنِيْنِيْ .
 إِنِّيْ لَمْ أَعْرِفْكَ بَعْدُ .
 إِنَّكَ لَمْ تَقُولِ لِيْ مَنْ أَنْتَ .
 إِنَّكَ كَرَوَانُ مَحْتَبِيْءٍ فِي دَغَلٍ ، أَسْمَعُهُ وَمَا
 أَرَاهُ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْسِجَ مِنْ تَلَافِيْفِ
 صَوْتِكَ ،

تَمَثَّلًا لَكَ فِي فَوَادِيْ .
 أَرْكَعُ عِنْدَهُ إِذَا عَزَّ اللَّقَاءُ ،
 وَبَحِثُ عَنْكَ فَلَمْ أَجِدْكَ إِلَّا فِي أَطْوَاءِ النِّغَمِ .
 نَحْنُ فِي حَبْنَا حَلْمَانِ .

على مَتْنٍ الأثير يتناجيان .

لَمْ تتصافح قطُّ أيدينا .

ولا شفاهنا تلامستُ .

ثغرك أجهل خمره .

ولا أدري أَلَحِظْكَ فتاكُ أم ناعسُ

طارفك .

ولكنني موقنٌ بأنك فاتنة .

وبأن الفؤاد أحبك .

٤٥

آه من صوتك المبحوح بكاء الناي ! كأنى
بآهاته الحررى شوكٌ يمر على حرير !

فديتك يا من تحلّى نغمك بالجراح . ولكنك
مرحةٌ فقيم شكاتك ؟ من أى جرح منسى
تنبع ؟

أمن جرح سبق مؤلداك ، وفى أعماق
روحك استقر ؟ فلما خلقت نثر الدماء على
صوتك ، وأرسله بحيث يخضب الأسماع ؟

آه من الجرحى أولاء ! حلالهم عذابهم !
وهل الحسن إلا ألمٌ تجسد ؟ أما يرى يتفزز ،
وينفث السحر هنا وهناك ، كأنه ثاوٍ على
جمر ؟

ما إخالها سعيدة قطرة الغيث ، التى ما ترمى

إلا تترجرج . ولا حبة الماس باعثة الوهج .
 إنما السعيد الماء ركّـد . والزجاج نام عن سحره
 واستراح . وشتان بين قطرٍ وماء . وبين ماسٍ
 متألّقٍ وزجاج .

غردى لى ! فبحّة صوتك تجرح قلبي ، كما
 بعث السّقامَ إليه جفئنك المريض . نحن نهوى
 المراض اللواتى يُمرضُننا . وإن فى بعض
 المرض لجمالاً . وإن فيه لبسماً أىّ بلسم .
 بلسماً لراحة بالنّا المملة .

هيا واسكبي جراحك فى جراحي تشخّـبها .
 يا ما أحيلى العذاب ! كأنى به يحلُّ عُقد
 نفوسنا ، ويعود بنا إلى عهد حنيننا الأزلى . يوم
 كنّا أرواحاً فى حب الله تتعذب .

هيا غنّينى بصوتك المبحوح ، فالسر كل السر
 فى بخته . السر كل السر فى جرحه . وفى عذابى
 وعذابك .

٤٦

أَحْسِرِي القِنَاعَ عَنْ وَجْهِكَ ، وَأَرِنِي
قَسَمَاتِهِ .

أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ إِلَى أَى الزُّهُورِ تَنْتَمِينَ ، وَإِلَى
أَى الْفَوَاكِهِ يَرْجِعُ نَسَبُكَ ؟
وَهَلْ شَقْرَاءُ أَنْتِ كَزَنْبَقَةِ الرَّبَابِ ، أَمْ خَمْرِيَةِ
اللونِ كَخَوْخَةِ ؟

أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ ! أَيُّ شَيْءٍ الْبُرْعَمَ فُكِّكَ
الصَّغِيرِ ، وَيُشَبِّهُ الْوَرْدَةَ خَدَّكَ ؟
وَهَلْ قَدْشُكَ كَالْغَصْنِ مِيَّاسَ ، وَكَالرَّمَانَةِ نَهْدُكَ ؟
أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ ! أَنْ أَعْرِفَ شَبَّهَكَ ،
لَأَنْقُشَهُ فِي خَاطِرِي .

حَتَّى إِذَا مَا سَكِرْتُ مِنْ خَمْرِهِ ، وَنَعَسْتُ مِنْ

لحظه ، أغمضتُ أجفاني عليه ، فيندسُ في
نومي ويجمّل أحلامي .

ثم أصبحو فتفتّح عيناى عنه ، كما يتفتّح الفجر
عن زهر الصباح .

لا تحبّجى حسنك عني . لا تُلْفَى نفسك
بالضباب . كيفانا في حبنا إيهاما . فاهتكي
الأسرار ، ودّعيا تنفض غيرها .

هيا تفتّحي في جوّى فعطّريه ، واطلعي في
سمائي فنورّيا .

لا تكوني كالبرعم أغلق أكمامه على سره
وانزوى . كوني كالوردة أسفرت ، وبهرت
الناظرين .

لا تخبّجى قيصك المرصع بالجواهر . اخلعي
خِمّارك ، ودّعى الجواهر تسطع في قلبي .

صوتك الشجيُّ في الأرزين ، وخطاباتك

المعطرّة الغلاف ، لا تعرّفك إلى حق المعرفة .
شيء واحد هو الذى يرفع الحواجز بيننا .
ذلك أن تُرينى وجهك .

٤٧

خرجتُ للقائكِ لا أعرفُ عنك إلا أنك
 ذلك الطائرُ المجهولُ ، الذى لبثَ زماناً يغردُ لي
 فى الإريز ، دون أن يُسفرَ عن وجهه . ثم
 مرت أيامٌ وجاءَ زمنٌ ، فأذنتِ للقناع أن
 يُحسّرَ عنك وتكلمتِ تدعينى للقاء .

وحملتُ القلبَ الوطان ، واتجهتُ إلى حديقة
 الضاحية ، حيث سرتُ والغديرَ الملتوى ، قاصداً
 إلى المقعد الذى تواعدنا عنده ، يُرَقص
 قلبى خَطَرُ الموج ، ويُبَلِّلُ فكري حفيف
 الغصون .

وفى طريقى مررتُ بخمائلِ عِدَّة ، قد
 اختبأتُ بها بلابلُ ما تكفُّ عن الشدو ،
 ذكرتنى يليلي المحتجب . واتخذتُ مكانى على

المقعد الخشبي ، يحمل إلى النسيم رِيَّاك من
بُعْد .

ومرت برهة ثم لُحْتُ في ثوبك الوردى .
تهشُّ في وجهك الزهور ، وتتغامز عليك الفراشات
المختبئة .

وأقبلت يكحل جفنك الليل ويصبغ العُنبُ
ثغرك . وحوالك من الفرحة هالة . وعليك
من الطهر إزار .

وخطرت فلا والله ما برك الطاووس في
مشيتك . ولا جارك الغزال في لفاتك .

تبارك الله كأنك في حسنك البدر وفي
خفة دمك النسيم ! ولو كنت زهراً لمّا
كنت إلا الورد . أو كنت غصناً لمّا كنت
إلا البان .

وشراب أنت له نكهة وحلاوة . فهبيك
الخوخَ عَصْرُوه . أو هبيك السكرَ ذَوْبُوه .

وابتسمت فكان الصبح من فك انبلج .
وتكلمت فكان الدر فاض .

وهتفتُ أهكذا أنت ، جلّ الخالق !
يا لضيعة أيامٍ لم أعرفك فيها .

٤٨

لم أكن أعرفك من قبل ، حين طلبت لقائي
 أول مرة ، وأخذت تصفين لي في الإريز
 نفسك ، وتبدعين في الوصف ما شاء لك جمالك
 أن تبدعي ، إلى أن شوقني لرؤيتك فاتفقنا على
 ميعاد .

يومئذ جلستُ تحت الخيمة ، وأقبلت كفرحة
 فرت من قلب طفلٍ غريب ، فنهضتُ وقبّلت
 يدك البضة ثم دعوتك للجلوس .

ولبثنا نتناجى وكأن الزهر قد تنفس عبيره
 في أرواحنا ، والطير غرّد لنا . فأحسنا وكأن
 الكون كله يشاطرنا ما نحن فيه ، ويعصر علينا
 جماله ليتم هناءنا .

وما أنسى أن قلت لي ونحن في معرض

البث ، إنك ظلمت أعواما تحلين بهذا اللقاء ولا
تطلبينه ، حياءً منك ورهبة . فأجبتك بأن جمالك
وإن لم أكن رأيته ، كان أيضا حلم فؤادى
المبهم مذ تعلم قلبى الخفق .

ولطالما أتتني صورتك فى الأحلام وكملت
عينى ، حتى إذا ما انتبهت على الضوء لا ألقها
بجانبي . فكان مشكلها كمثل حمامة دأبت على أن
تخط فوق نافذتى وتغرد ، وكلما هممت بصيدها
طارت واختفت فى خمائلها النائية .

عندئذ ضغطت يدي وضغطت يدك ،
وتنهّدنا كلانا ، ورنونا كلٌّ لصاحبه وقد أودعنا
نظراتنا ظمأ الليالى التى انساخت من عمرنا دون
أن نلتقى .

ثم أزف موعد الانصراف فافترقنا ومرت
لحظة الحلم ولم تعد . وكان ذلك لقاءنا الأول
والاخير .

ولقد أرززت لي عقب انصرافك تقولين
 إن يدك ما تزال ترتجف من أثر قبلي ، وإنك
 قد أغلقت على نفسك باب مخدعك لتعيشي مع
 أحلامك في وحدة .

ثم انقطع الحديث فجأة ولم أدر السبب .
 ولم تحدثيني بعدها ، وظل أمرك طلاسماً يحيرني ،
 وجبك عذاباً يقض مضجعي .

ولو عرفتُك لطرقتُ بابك غير مُتَوَان ،
 وعفرت جبتي على عتبته . ثم سألتك الصفح إن
 أكن أذنبت ، أو حلّ اللغز الذي أعجزني حله .

ولكني لا أعرف الحى الذى تضووع فيه
 أنفاسك ويغرد صوتك . ولا رقم ذلك الإريز
 المقنّع الذى تُسرّين إليه بنجواك فيحملهما إلى
 من تريدن دون أن ينمّ عن نفسه . بل إننى
 لا أعرف حتى اسمك الصحيح ، ولا إلى أى
 الأسر تنتمين .

فَقُولِي لِي بِرَبِّكَ : أَحُلُمَا كُنْتُ أَمْ كُنْتُ
حَقِيقَةً ؟ وَبَشَرٌ أَنْتِ أَمْ مَلَكٌ هَبِطْ مِنْ
السَّمَاءِ ، لِيُسْعِدْنِي لَحْظَةً وَيُخْتَنِي ؟

فَإِنْ تَكُونِي بَشَرًا وَفِي الْيَقِظَةِ لَا فِي الْأَحْلَامِ
أَتَيْتِنِي ، فَقُولِي لِي مَاذَا حَدَثَ ، حَتَّى تَدْنِي مِنْ
فِي الْكَأْسِ ثُمَّ تَمْتَرِعِيهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ تَلْبَسَهُ ؟

مَاذَا حَدَثَ لِتَعْلِمِنِي عَشَقَ الْعَيُونَ السُّودَ ، ثُمَّ
تَحْرِمِينِي إِيَّاهَا ؟ وَتَلَوِّحِي لِي بِفَمِّكَ الْجَمِيلِ ،
لِتُرِينِي أَنْ مِنَ الثَّغُورِ لَمَّا يَشْبُهُ اللَّوْثُوسُ ،
وَمِنْ الشَّفَاهِ لَمَّا هُوَ فِي حِمْرَةِ الْعَنْدَمِ ، ثُمَّ
تَنَائِي بِهِ عَنِّي وَتَتْرَكِينِي بِحُسْرَتِهِ ؟

أَوَّاهَ ! لَمْ يَزَلْ مَلْبَسُ يَدِكَ يَخْدِرُ أَعْصَابِي ،
وَرَنَةُ صَوْتِكَ الرَّخِيمِ تَسْكُرُ أُذُنِي . وَلَمْ تَزَلْ
أَنْفَاسُكَ تَعَصِّرُ فِي رَوْحِي عَطْرَهَا ، وَوَقَعَ قَدَمُكَ
يَدْقُ فِي قَلْبِي وَيَزْلُزِلُهُ .

خَبِّرِينِي يَا فَتْنَةَ الْأَيَّامِ : مَاذَا أَصَابَ جَنَابِي ؟

وهل ما يزال حيًّا في فؤادك ، أم أنه انطفأ
 كدأبه في قلوب الغيد ؟ وهل ما تزالين في ثياب
 العافية وتضنّين بحبك عليّ ، أم أن شرًّا
 أصابك وعن لقائي أقعدك ؟

فُضِّضَ في إنِّ بمكروهٍ ذكرك ! ولكن
 ماذا أقول ؟ لقد حيرتني ! لا الحب إن صدق
 يُطفأ في لحظة ، ولا الكذب بدا يومئذ في
 حديثك . فماذا أصابك ؟ ماذا حدث ؟

٤٩

عندما يأتى الربيع ،
 ويعطف قلبينا أريجُ الزهور ،
 سأخرج وتخرجين يا حبيبتي المجهولة ،
 يفتش كلُّ منا عن صاحبه .
 يهدينا عبيرُ أرواحنا ،
 كما هدى العطرُ الفراشَ إلى زهره .

سنهبط الرياضَ الفِيسح .
 ونجوس خلالِ مماشٍ عِدَّة .
 وعلينا من الشوق ضنى .
 وبأعيننا وجدُّ وقلق .

حتى إذا ما أذنَ القضاء ،
 ألفينا نفْسَنا وجهاً لوجه .

فينظر كلُّ منا للآخر في وِلكه .
وأبتسم وتبسمين كأننا متعارفان .

وعندما أدعوك لمراققتي ،
ستُطرقين كوردةٍ خَجِلة .
ولكنك ستمنحيني يدك .
وعندئذ نسير جنباً إلى جنب .
بين صفَّين من زهور ملوَّنة .
تُخال وقد رَفَّ فوقها الفراش ،
وصيفاتٍ أمسكنَ شموعا .
على حين يطنُّ في أذنيننا النحل .
وتزفنا الشحارير بأعذب نغم .

حتى إذا ما أوينا إلى خميلة ،
تبادلنا من الفم أول قبلة .
وعندئذ نسجِّل في لوح الغرام .
قصةَ حبٍّ جديدة .

إلى أين أيها الغزال الشَّريد؟ قِفْ عدوك،
وتعالَ تَفِيَّاً ظلي . فهناك في حنايا أضلعي ،
شجرةٌ وارفةٌ وعينُ ماء .

تعالَ اعكفْ عليك ، وأغرقك في كأس
حناني .

تعالَ اجعلِ القلبَ مشواك وأقيمْ منك فيه
صنماً أعبدُه .

تعالَ أجمعْ لك الفل في الصباح ، وأنظمه
لك أكاليل .

وأغازلك بقُبلى وأصبغُ خديك بورد
الحجل .

تعالَ تعالَ أحبك !

لك الله ! أجفلتَ كدأبك ، ولم تُلقِ بالاً
لتوسلي .

ليت شِعري أَيْ عَبَقِ مَبْهَمٍ يناديك ،
فَفَقَوْتَ أثره ؟ لَهْنِي عَلَيْكَ يَا مَنْ سَيَظِلُّ عَدُوَّكَ
أَبَدِيَا ! أَجَلْ ، إِنَّكَ لَنْ تَقِفَ الدَّهْرُ . لِأَنَّ الْعَطْرَ
الَّذِي نَادَاكَ ، فِيكَ أَنْتَ وَمَا تَدْرِي !

فِي عَيُونِكَ السُّودَ ، وَجَفُونِكَ السَّكْحِيلَةَ ، فَاتْنِ
سَبَّأَكَ . فَيَاوِيْحَكَ يَا مَنْ عَشَقْتَ نَفْسَكَ يَاوِيْحَكَ !
إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ غَايَةَ ، وَلَا ظَمَأً تُرَوِي .

شَارِبُ دَمِهِ لَا يَتَغَذَى . وَلَبَّسْتَ النَّارَ
تَأْكُلُ بَعْضَهَا ! لَبَّسَ الْأَمَلُ يَوْلَدَ بَيْنَ أَيْدِينَا !
لَيْتَكَ يَوْمًا تَفِيْقُ ، فَتَعْلَمَ أَنَّ الظِّلَّ الَّذِي شُبِّهَ
لَكَ يَعْدُو مَعَكَ ، وَأَنْسَاكَ لَنْ تَتَقَابَلَا . فَتَهْتَفَ
وَعَلَامَ يَا رَبِّي الْعَنَاءُ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى ظِلِّي !

وَلَكِنَّكَ وَأَسْفَا لَنْ تَفْعَلَ ، لِأَنَّ الْخَمْرَ الَّذِي
أَسْكَرَكَ ، يَتَدَفَّقُ مِنْ حَشَاكَ . مَسْكِينٌ لَنْ تَذُوقَ

العشق عمرك ! كأسك صرفتك عن كثوسنا .
فسقينا وشربنا ، ولكن من خمرتك .

إنك ذِيَّكَ الجميل ، الذى تيمنا وتعافى
إلا من هوى نفسه .

إنك القمر لم يجد من يسيه ، فسبانا وبحسنه
شغل .

إنك الشقى أشقيت نفسك ، وكتبت الشقاء
على سواك .

إنك الجمال تسامى فلم يجد كفئاً يعشقه ،
فوضع قلبه فى كفّه وانطلق يبحث عن أمل
مفقود ، ولم يجده وظل يعدو ، وداس فى طريقه
حشداً من قلوب .

٥١

هل تعلمين وأنت تسيرين في الطريق غير
مبالية ، والفتنةُ تقطُر مع كل خطوةٍ تدبّين بها ،
أن ثَمَّةَ عاشقاً برَّح به الهوى ينتظرك ، وقد
كَلَّتْ قدماء من طول ما وقف ، واضطرب
بصره من كثرة ما حَدَجَتْهُ العيون المتسائلة ؟

وأنه يجيئك كل يومٍ من أصقاعٍ بعيدة ،
لمجرد أن يظفر منك بنظرةٍ يختلسها وأنت عابرة ،
غير عابئة بما تجشَّم في سبيلها ، وبما يتركه جهلك
إياه في قلبه من ضنى ؟

وهل تعلمين أن عينيك الناعستين هاتين ، قد
أيقظتا في أثرهما أَلْفَ عينٍ وعينا ، وأن كل
القلوب تعرف دَقَّةَ قدمك ، وتميِّز عبيرك من
بين أَلْف عبير ، رغم أنك لا تعرفين أحداً

الْبَتَّة ؟

وَأَنْكِ وَأَنْتِ تَسِيرِينَ لَا تَتَلَفَتِينَ يَمْنَةً أَوْ
يَسْرَةً ، وَلَا تَرْفَعِينَ عَيْنَيْكَ لِمَخْلُوقٍ ، مَا يَكَادُ
طَيْفُكَ يَلُوحُ مِنْ بَعِيدٍ ، حَتَّى تَشْرَبَ الْأَعْنَاقَ
لِرُؤْيَيْكَ ، وَتَوْشَكَ أَنْ تَلْتَهُمَكَ الْعَيُونَ ؟

وَأَنْكِ مَا تَجَاهَلْتِ مَا حَوْلَكَ وَسَرَتْ بَيْنَ
صَفُوفِ الْمُعْجِبِينَ كَمَلِكَةٍ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَثَقَتْ
بِأَنْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْحَصَى يَعْرِفُكَ ، وَعِنْدَئِذٍ أَطْمَأَنَّ
جَمَالَكَ إِلَى نَفْسِهِ وَنَامَ ؟

٥٢

يا جميلةً نقلِ الخطأَ نظرةً إلى مقتني
أثرك !

ويجهُ من مسافةٍ بعيدةٍ يتبعك ، وهو راقص
القلب على وقع قدميك !

كم دست قلبه كلما نقلتِ على الأرض خطوة !
وشردتِ من لبه كلما لوّحتِ بذراع !

وكأىٍّ من شعاعٍ من لحظتك أرسلته ،
هرب إلى فؤاده فكواه ! أو بسمةٍ من ثغرك
بعثتها ، فرت إليه فزقت نسيجه !

وكأىٍّ من رنةٍ من خلخالك دقَّ لها ! أو
همسةٍ من أساورك أثارت خفقه !

ما ذهب مع الريح من فتنتك شيء ، وإنما
سجّل نفسه في قلبي . حتى أشعةُ كفك البيضاء

تملأ عيني وترقص إنسانها . حتى تثنى خصرك
اللدن ، تقوم له في أوصالي قيامة .

ليتك لا تحطّين رحالك ، وأظل أضرب
وتضربين في الأرض هائمين ، يشدّني إليك
حبلٌ من نورٍ غير منظور ، يحدله حسنك .
ويشدك إلى حبلٍ من رفيف قلبي المعذب .

ثم تعطفين ، ونواصل السير ذراعاً في ذراع .
ويكفُّ حسنك الهاربُ في قلبي عن أذاه ،
ويرقُّ فيه ويتبسم .

وأبيتُ ليلي لا أصدق أن المني التي وُلدتُ
في لحظة ، قد تحققت في طرفة عين . وأن
غرس الليل يُؤتسى أكله في الصباح .

۵۳

مُرِّیْ أَقْطَفْ أَنْضِرْ أَزْهَارِیْ ، وَأَفْرِشْ بِهَا
أَرْضَ حَجَرَتِكَ . وَأَبْعَثْ بِأَجْمَلِ طَیْرِ یَغْرُدُ عِنْدَ
نَافَذَتِكَ .

مَرِّیْ أَعْصِرْ مِنْ زَیْتُونِیْ زَیْتَ مَصْبَاحِكَ ،
وَأَوْقِدْهُ لَكَ بِوَهْجِ جَوَاهِرِیْ . وَأَصْبِغْ بِوَرْدِیْ
فَجْرَكَ ، وَأَقْطِرْ مِنْ لَوْلَؤِیْ أَنْدَاءَهُ .

مَرِّیْ أُقِمْ مِنْ أَغْصَانِیْ مَقْعَدَكَ ، وَأَغْرِسْ
لِبَلَابِیْ یَعْرِشْ فَوْقَهُ . وَأَحْكْ مِنْ حَرِیرِیْ
عَرَبَتَكَ ، وَأَرْسِلْ طَوَاوِیْسِیْ تَجْرُهَا لَكَ .

مُرِّیْ أَمْلَأْ مِنْ زُبُقِیْ بِحَیْرَتِكَ ، وَأَوْفِدْ
نَسَمَاتِیْ تَمُوجْ سَطْحَهَا . وَأَصْنَعْ مِنْ أَبْنَوْسِیْ
زُورْقَكَ ، وَأَجْعَلْ مِنْ عَاجِیْ نَقُوشَهُ .

مَرِّیْ أَجْرِ مِنْ فَضَّتِیْ جَدَاوَلَكَ ، وَأَرْصِعْ

بِزِجْدِي شَطَّانَهَا . وَأَتَوَجُّ بِذَهَبِي رُبَّاكَ ، وَأَنْثُرُ
يَوَاقِيتِي عَلَى زَهْرَهَا .

ثُمَّ أَلْبَسَ الْأَسْمَالَ وَأَقْفَ بِيَابِكَ ، أَسْتَجْدِي
كَلِمَةَ شُكْرِكَ مِنْكَ وَأَنْصَرِفُ .

٥٤

إِنْ رُمْتُ سَبْحاً ، فاملئ من دمي
بركتك ، والهسي في مائها .

أو رمت زينة ، فاصبغ من دمي وجنتك ،
واسبي العقول .

ومن عروق شدي أوتار قيثارتك ،
واعزفي .

ومن شعري اجدي لك جبلاً ، ونطّي
فوقه .

واصنعى وقيت من جلدي تماذك ، إن
خفت الحسد .

واحرق فديتك من قلبي بخورك ، واطردى
الجن .

وإذا ما يوماً أجيئك أشحذ نظرة ، فارفعي
عينيك إلىّ وسليني : من أنت ؟

لم أكد أراك تمسسين كزهرة ، حتى خلتُ
 كأن آلاف القُبُل المختبئة في قلبي ، قد طارت
 منه كفراشاتٍ ترتعش ، وخطَّت على ثغرك .

وعلى الرغم من أن رفيف أجنحتها كان من
 نور لا يُرى ، فقد هدتك فطرتك إلى ذلك
 الوافد الجديد ، فاصطبغ خدك بحمرة الخجل ،
 وتململت في مقعدك كأنما لتنجِّسها .

ولكنك ما جرؤتِ على هذا إلا لأنك
 مطمئنة إلى أن دَلَّ الزهور لا يثنى الفراش
 عن كلفه بها ، وأنه كلما أبعد عنها عاد إليها
 وهو أشد لطفة .

إنك لتحاولين إخفاء رِعدة شفتيك تحت
 قُبَله التي تدغدغ إحساسك ، لتبذُر فيه الحب

وَتُمْكِنُ لَهُ فِي تَرْبَتِهِ .

إِنَّكَ تَتَنَهَّدِينَ مَتَظَاهِرَةً بِأَنَّكَ تَوَدِّينَ اقْتِلَاعَ
هَذَا الْغِرَاسِ ، عَلَى حِينِ أَنَّكَ مَا فَعَلْتَ هَذَا
إِلَّا لِتَجْعَلِيهِ يَنْتَفِخُ فِي صَدْرِكَ ، وَيَتَغَلْغَلُ فِي كُلِّ
مَسَامِكٍ .

إِنِّي أَفْهَمُ مَكْرَكَ . إِنَّكَ سَعِيدَةٌ لِأَنَّكَ ظَفَرْتَ
أَخِيرًا بِتِلْكَ الْفَرَاشَاتِ الَّتِي حَدَّثْتُكَ عَنْهَا غَرِيزَتُكَ ،
وَالَّتِي رَأَيْتَهَا فِي الْأَحْلَامِ مِنْذُ أَنْ كُنْتَ بُرْعُومًا
لَمْ يَتَفْتَحْ .

الْحَيَاءُ وَحْدَهُ ، وَرَهْبَةُ الْجَدِيدِ ، هُمَا اللَّذَانِ
يَمْنَعَانِكَ مِنَ الْبُوحِ بِمَكْنُونِكَ . وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَمْنَعَا
قَلْبَيْنَا مِنْ أَنْ يَغْنِيَا فِي السَّرِّ أَغْنِيَةَ الْحُبِّ مَعًا ،
وَبَصُوتٍ لَا تَسْمَعُهُ إِلَّا أَذْنَاؤُنَا .

هل تعرفينى كما أعرفك ، يا من تيمّنى العمر
وما تدرين ؟

وهل ترينى كما أراك وأنتِ على الشاشة
البيضاء تبذرين الفتنة ، فتلمحى فى عينيّ بريق
الصبا ، وفى حركاتى اضطراب الهوى ؟
وهل أنتِ حقاً تلك المكسيكية وأنا المصرى ،
وأنّ كلاً منا يعيش على قارة ، وتفصل بيننا
بحار ؟

وهل كان حتماً أن تلعبى أمامى « رمونا » ،
ذات العيون السود والجفون المخملية ؟
وتلعبى بعدئذٍ دورَ غادة الأدغال ، فتفتننى
بمزاجك الحادّ ورقصك الهمجى ؟
وهل أنتِ حقاً « عصفورُ الجنة » ، الذى

تقنع على الدنيا بطيفه ، وما نراه إلا في الفراديس ؟
 وهل قضى الله أن أحبك رغم بُعد
 الشُّقَّتَيْنِ ، فأظل دهرى أتعلق بالوهم المستحيل ،
 ثم أقضى غريباً عن فؤادك ؟

وهل هكذا الدنيا بحرٌ خِصَمٌ ، لا تعرف
 الموجةُ فيه الموجة ، إلا أن تشدَّ إحداها وتتطاول
 بعنقها ، فيميزها عن أترابها سائرُ الموج ، رغم
 أنها تظل على جهلها بوحداته المغمورة في الزحام ؟
 وهل تلك سنة الحياة قضت بأن يعيش سكان
 الكوكب الواحد غرباء ، إلا من اصطفاه الله
 فعرفه إلى عباده ، ولم يعرفهم إليه لينقوا من
 ودّه غُلَّةً بالفؤاد ؟

خذيْنِي تَابِعاً لَكَ ! أَسِيرٌ فِي رِكَابِ أَيَّامِكَ ،
وَأَنْشَقُ فُلُوكَ عَمِيرَهَا .

فَأَمْشِطُ كَلْبِكَ الْمَدْلَلِ ، وَأَرْبِطُ الشَّرِيطَ
الْأَحْمَرَ فِي عُنُقِهِ .

وَأَقْدِمُ الْعُشْبَ الْحَمَلَكِ الصَّغِيرِ ، وَأُنْثِرُ
الْحَبَّ فِي أَقْفَاصِ طَيُورِكَ .

وَأَقْطِفُ لَكَ الزَّهْرَ فِي الصَّبَاحِ وَأُرْتَبِّهِ فِي
أَوَانِيهِ . وَأَنْظُمُ مِنْ نُخْبِهِ قَلَانِدَ أَزْلَقِهَا فِي
جَيْدِكَ .

وَأَعْصِرُ مِنَ الْفَوَاكِهِ شَرَاباً أَقْدِمُهُ لَكَ فِي
كَؤُوسٍ مِنْ فِضَّةٍ . وَأَشْرَبُ مَا تَبَقَّى فِي قَرَارَتِهَا
مِنْكَ .

وَأَكْنِسُ لَكَ مَمَاشِي الْحَدِيقَةِ حَيْثُ تَمْرِينُ

لَتَفْقِدَ زَهْرَكَ ، وَأَلْثَمَ وَرَاءَكَ الْآثَارَ الَّتِي تَطْبَعُهَا
خَطَوَاتُكَ .

وَأَمْلَأْ لَكَ الْحَوْضَ الَّذِي تَسْتَحْمِيهِ فِيهِ ،
وَأَلْعَقْ بَعْدَكَ الْقَطْرَ الَّذِي تَسَاقُطُ مِنْ جِسْدِكَ .

وَأَنْظِفْ لَكَ الْمَقْعَدَ الَّذِي تَجْلِسُ عَلَيْهِ ،
وَأَجْلِسِ الْقُرْفُصَاءَ عِنْدَ قَدَمَيْكَ .

وَأَصِيدْ لَكَ الْفَرَاشَ الْمَذْهَبَ الْجَنَاحَ . وَاجْمَعْ
لَكَ الْقَوَاقِعَ ذَوَاتِ الْمَحَارِ .

وَأَرْجِحْكَ فِي ظِلِّ الْغُصُونِ ، وَأُظْفِرْ مِنْ
جِسْدِكَ النَّاعِمَ بِلَمَسَاتِ .

وَأَنَاوِلْكَ قِيْشَارَتَكَ وَأَتَوَارَى خَلْفَ الشَّجَرِ ،
أَسْمَعُ مَا يَتَنَاوَسُ إِلَيَّ مِنْ نَغْمِهَا .

وَأُخَفُّ إِلَيْكَ كُلَّمَا دَعَوْتَنِي بِعَبْدِكَ . وَأَهْتَفِ
إِذَا أُمِثَلَ بَيْنَ يَدَيْكَ : لَبَّيْكَ !

وَأُلْبَسُكَ إِذَا نَهَضْتَ مَعْطَفَكَ ، وَأَحْمِلْ لَكَ

ما قطفت من زهر وفاكة .
 وأتلق منك أوامر الغدير وأنت صاعدة إلى
 مخدعك ، وأشكرك في قلبي .
 ثم أجلس تحت نافذتك وأنت نائمة ، أراعي
 النجوم وأحرسك .

٥٨

حرامٌ يَدُكَ الجميلة تَفْلَحِ الأرض . هذه
اليَدُ ما خُلِقَتْ إِلَّا لِلْقَبْلِ .

حرام تدوس قدماك التراب ، وما خُلِقْتَا
إِلَّا لِتَطَآ جِياهُ العاشقين .

حرام لا يطوِّق معصمَكَ سِوَارَ ، ولا
يَضِيءُ بِإِصْبَعِكَ خَاتَمَ .

حرام لا يَرْنُ بِسَاقِكَ خِلْخالَ ، ولا يَتَدَلَّى
مِنْ أُذُنِكَ قَرْطَ .

حرام لا يَغْطِي كَتِفَيْكَ الحَرِيرَ ، ولا تَتَمَعَّلُ
قَدَمَاكَ المَخْمَلَ .

حرام لا تَسِيرِينَ عَلَى الوَرْدِ ، ولا تَرْكَبِينَ
الْمَرْكَبَاتِ الذَّهَبَ .

حرام لا تَجْلِسِينَ عَلَى الأَرَاثِكِ ، ولا تَتَوَسَّدِينَ

ريش النعام .

حرام لا تسكنين القصور ، ولا تملكين
الرياض الفيح .

حرام لا يغنى بحسبك الشعراء ، ولا ينحت
التمثيل لك المثالون .

حرام لا تؤلف عنك القصص ، ولا يكون
حديثك شغل الناس .

حرام لا يُنشد الحُداة بك ، ولا يشدو
الملاحون في اليم .

حرام لا يكون للحظك قتلَى ، ولا لرحيق
فمك سُكارى .

حرام لا تزخر الجداولُ بدموع عشاقك ،
ولا تُوقد النار من حرق قلوبهم .

حرام لا تميمس الغصون إن خطرتَ بينها ،
ولا يتبسّم الزهر إن رأى طلعتك .

حرام لا يسكب الفجرُ لذكرك الأنداء ،

ولا يتلهَّب الشفق من شوقٍ إليك .
 حرام لا يغرد لقربك البلبل ، ولا ينُوح
 لبعذك القُمُرى .
 حرام لا تجلسين على عرش الجمال وتأمرين
 في القلوب وتنهين حرام !

بفؤادى على كثرة مَنْ عرفتُ مِنْ الغِيدِ
ظماً . فيا ويحك يا مَنْ ضيّعتَ عمركَ فى العشق
وما اهتديتَ لمحبوبك !

أين منك أين فتاة أحلامك ، وفى أى ناءٍ
من البلدان تعيش ؟ كأنى عندما تشاءتُ عنا
مشيئة الخالق ، ألقت بنا كلٌّ فى مكان ، بعد أن
عطفتِ الروحَ على الروح ، والخيالَ على الخيال .
هى سمراءُ وربّى غير أنى لم أجدها فى
سُمر الخدود . سوداء العينين لكننى لم أرها
فى سُود العيون . عَنَدَمِيَّ ثغرُها لكنّها لم
تكن فى اللواتى لُثِمَتْ ثغورهن العندمية .

فيها غير هاتيك السّماء شىءٌ تنفرد به .
شىءٌ أجله ويعرفه فؤادى ، ولا يستطيع له
تصويراً ويتعذب .

فمتى متى يا منسى القلب تجمعنا الأقدار ،
 ويعثر الضالُّ على ضالته ؟ إن كنتِ في الغاب
 تعيشين ، فقُولي لي أضربُ في مجاهله وآتيك .
 أو كنتِ في الجزرِ النوائى ، فقُولي أركبُ لك
 البحر وأجيئك . أو كنتِ من حيى وبنات
 جيرانى ، فتعطّني وصادفني يوماً في طريقى ، أو
 الهيمى قدى أن تقصدا نحوك .

قُولي لي أين أرضك ، أقتحمُ في سبيلك ألف
 خطر وخطر ، وأيممُ شطرك لا أخطُ رحالى
 إلا أن أبلغك ، ولو أفنيتُ عمرى في الأسفار .

حتى إذا ما وصلتُ وشمسى تنحدر للمغيب ،
 وقد تهللتُ ثيابى وتخضبتُ قدماى بالجراح من
 طول السفر ، ألقىتُ بنفسى فوق صدرك
 الحنون ، وسألتُك أن تدعبنى أطفئ على فمك
 ظمأ العمر بقبلة واحدة ، أودعها ما تبقى من
 رمقى ثم أسلم بين يديك أنفاسى وأموت .

٦٠

أَفَحْتُمْ عَلَىَّ أَنْ أُرَاكَ بَعْدَ أَعْوَامٍ عِدَّةٍ ،
 افترقنا فيها على الضنى ، فأذكر الأيام التي جهدتُ
 في أن أحجب ذكرياتها عن عيني ، والبقاع التي
 احتوت قديماً حبنا ، والتي أضحت مذ خلت
 منا خراباً ؟

وَأَنْ تَسْأَلَنِي عَنْ حَالِي فَأَجِيْبُكَ وَالْدمْعُ فِي
 مَقَلَّتِي يَتَرَقَّرُ ، أَنْ قَلْبِي قَدْ دَفَنْتُهُ عَلَى أَثَرِ نَائِكَ ،
 وَأَهْلِي أَوْدَعْتُهُمُ الْقُبُورَ وَاحِداً إِثْرَ وَاحِدٍ ، ثُمَّ
 عَشْتُ غَرِيْباً لَا حَبَّ يُؤْنِسُنِي وَلَا أَهْلَ ؟

وَأَنْ كُلَّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي تَغَيَّرَ ، فَهَاتِ الْبَسَمَاتِ
 عَلَى فَمِي ، وَسَكْتَ الْقَلْبِ الَّذِي كَانَ دَائِبَ الْخَفَقِ .
 وَحَتَّى دُمُوعِي الْهَتَّانَةَ لَضَبَّتْ ، فَمَا عَادَتْ تَنْسَكِبُ
 وَتَغْسِلُ فِي قَطْرِهَا أَكْدَارِي ؟ وَاكْتَسَتْ الدُّنْيَا

في عيني بضبابٍ قائمٍ حجب عني شمسها الساطعة ،
 كما حجب عني الزهر والأطيّار ، فما عدت أبصر
 من ألوانها إلا ظلمةً تشابه ، ولا أسمع من
 نغمها غير صمتٍ مُوحش ؟

وأنى أعيش الآن كالتمثال الحجّر ، لا يَطرِب
 لشيء ولا يتألم من شيء . ولكنه وقد احتضن
 موته بين جنبيه ونام ، قد احتبست فيه هذه
 الحسرة الصامتة ، التي لا حرقّة تصهرها ولا تذيبها
 دموع . فكانت كالهمٍّ سواءٍ بسواء ، إلا أنها تقيم
 والهم يرحل ، ويتنفس الهمُّ وتحبس أنفاسها ؟
 لماذا لحّت في سمائي مرة أخرى ، وسرّبت
 من تيار الحياة في جسدي الميت ، ما لن يُنهض
 عظامه النخرة ، ولا هو يتركها هاجعة في سلام ؟
 لماذا داعبت بالنور أجفانه المغمضة ، وأزعجتها
 في نومها الهادي ؟ ونبشت في قلبه جمرًا قد كان
 شبع فيه حزًا وهمد ، فأعدت تعذيبه سيرته
 الأولى ؟

لماذا لم تتركيني أنعم بهذه الراحة التي هي
كل ما ينعم الموتى به ، وكفاني ما ذقت من
بُعدك وقطّع قلبي ، وما ذقت من الأحداث
الاخر ؟

واحَرَ قلبي ، ما تزالين جميلة ! وعلى رغم
كُرِّ الزمان صبيّة ! فخبّريني وقد جئتني : أما
يزال في مَعِينِ هوانا قطرة حبّ باقية ، نندى
بها شفاهنا ؟ وهل تستطيعين أن تسقي بها مَوَاتَ
فؤادي فتعيدى الحياة إلى جذوره وتخصّري ورقه ؟

بنفسي أن نعود لحبنا ! بل إني لأخشى أن
أكون على هواك مقيماً ، وأن يكون الغرام الذي
مات قد ترك بذوره على التربة المهملة ، في
انتظار قطرة غيث تهزها بالنبت .

إني لأخشى أن يكون هذا وأخدع نفسي
لأنخلص من تبعات الهوى . آه من العجز آه
وما يجرُّ عليّ ! كلما ذكرتُ قلة حيلتي ، ذكرتُ

الأيام التي قدّرتُ فيها فأتعذب . وإن عبءَ
العجز لشديد ، وأشدُّ من عبء الغرام إذا
حُمِل . فإنَّ للحب أجنحةً تهتمُّ به فيخفُّ
حمله ، ولكنَّ طيرَ العجز مهيض الجناح .

احتجبي عن عينيَّ بالله ! وعودي للبلد الجديد
الذي نزحتِ في الماضي إليه ، ودعي الماضي
يرقد وحده في سلام ، وقد تدثّر بعباءة النسيان
التي تحجب عن قلبه فتنة الدنيا .

مالي وليلفتن ! ذاكَ كان زماناً ومضى . إن
بسمائك لتتقلب الآن دموعاً في قلبي . وحسنك
ليرسب فيه حسرات .

٦١

كأنما حين رأيتك بعد فرقة أعوام ، قد انبثق
 في عيني فجرٌ ماضٍ بعيد ، طالما عرفه قلبي قبل
 أن يغيب عنه ردحاً من الزمن ، وعاد يلفني في
 نوره .

وما كدت أن ألثم ثغرك ، حتى تذوقت فيه
 طعماً لا أجهله ، وهبَّ عليّ منه نسيمٌ عطرٍ
 قديم ، تذكرته على الفور حين نشقته .

وكأنني بقلبي بعد أن دُفِن تحت طيات الهجر ،
 قد نفّض عن نفسه سجون الرقاد ، وتشاءب
 يستقبل الحياة من جديد .

٦٢

لقد تركتني وأنتِ بُرْعُكُمْ مُغْمَضٌ ، ثم
أُتِيتِ إِلَى بعد غيبةِ أعوام ، فإذا بأكامك قد
تفتحتْ عن ورقها ، وإذا بك زهرةٌ تنبسم وتملاً
الدنيا فتنة .

وإذا للفرّاش على حواشيك رفيف ، وللنحل
على كأسك ملتقى .

وإذا بالطيور تتزاحم على غصنك وتغرد لك .
ونسيم الصَّبَا يتحرك ويثبك أشواقه .

حتى غصونُ الدوح مالت تعانقك . والموجُ
شَبَّ ليلتم قدمك .

ولقد غازلك القمر إذ تنبه لك . وخفق لك
النجم إذ رآك .

ولم يبقَ مُولعٌ بالجمال إلا وقد غمز لك

بحاجب ، أو أشار إليك بإصبع .

فياويلَ بلبلك القديم من دنيا دانت لك ،
ومن كثرة العشاق على ساميرك ! ويا ما أمرَ
الذكرى ذكرى حبنا في أيامه الخوالى !

كان لي بالأمس غصنك الرطب ، أخطُّ
عليه وحدى وأغرد ، وأعلّم قلبك كيف يخفق
للنغم ، فهل لي اليوم على غصنك المياد موضع
لهبوطى ؟

وهل تذكّرين بعد أن عرفت ما النغم ،
تلك النغمة القديمة التى كانت أول ما طرق
مِسمعك ، وتميزنها من بين آلاف الأنغام التى
تنسكب فى أذنك كل يوم ؟

وهل تجددين فيها عذوبة النغم الأول ، وبشاشة
الزهرة المبكّرة ، فتؤثرها بحبك ، وتمنحها قلبك
دون العالمين ؟

٦٣

عندما تكبر أفرأخ الطير ، ترفرف وتفارق
أعشاشها .

عندما تتفتح البراعم ، يكثر عاشقوها .
عندما يتعمق الجدول ، يُغرق من يسبح فيه .
عندما تبسُق الأشجار ، تنأى عنا فواكهها .
وهكذا عندما كبرت طفولتك ، ورفلت في
حُلل الصبّا ، أفلت من بين يديّ ، وشاركني
في هواك الطامعون ، وانقلب أمانك خطرا ،
والقريب منك بعيدا .

بالأمس كان جمالك يعصر في قلبي بسماته ،
ولكنه ما يعصر اليوم إلا دموعي فيه .

٦٤

ماتت ! أولُ من خفق لها القلب !
 ماتت ! مَنْ كانت لحياتي فجرها ، ولزمانى
 ربيعَه !

ماتت فى شَرخ الصَّبَا وأوَج الجمال ،
 وأسلمتْ للريح عطرها فى ليلة ، ولم تتركه للأنسام
 تأخذ منه على مَهَل . وغطت بورقها الأديم ولم
 تدعُه يسقط ورقةً ورقةً .

وراحت ولم يزل فى كأسها عطرٌ لم يضع ،
 وفى كِمِّها أوراقٌ لم تتفتح . ولم يزل للفراش
 حولها رفيف ، وللطيور على غصنها سامِر .

فبكيتها على رغم الخصاص وبكتها الدنيا
 معى . ونسيتُ أنها غدرتُ بي ، وغفرتُ من
 ذنبها ما سَلَف .

فيا ليتها أُمِّلتْ لشبابها ، ولو لتظلَّ للعشاق
 الأُخْرَ ! ومرَّغتْ على جمر الجوى قلمي ولم
 تحرقه بنار الفراق .

ها هو ذا التراب يحفر لك حفرةً فيه
ويعمّقها ، ليضعك داخلها ثم يُهَيِّل نفسه
عليك .

وهكذا ينطوى الجمال في طرفة عين ، فتخمد
جذوة الفتنة ، ويَبْطُل سحرُ الجفون ،
ويَندوى فمٌ في لون الورد ونعومة البراعم .

وهكذا تُنْشِبُ جوارحُ الطير مخالبها في
صغاره ، فتُسْكِتُ أصواته الغريّدة ، وتُذْرى
ريشه الجميل في مهب الرياح .

وهكذا تُعَدُّ وليمةُ الموت من الأجساد
النواعم ، بين صرّخات الألم وتوسلات الدموع .

٦٦

لقد كنتِ بستاناً وذُبُل ، غير أن أزهاره
التي قطفتُها ، لم تزل حيةً في فؤادي ، وإن تسكن
قد زابتها بشاشتها الماضية .

وكان أطيّاره التي هجرت دوحها ، قد
عشّشت في قلبي وقد انقلب شدوها نوحاً .
وغدراؤه التي جفّت ، عادت تنبع فيه وتواصل
جريانها ، بعد أن استبدلت بخيرها المرح
أنيباً حزينا .

وهكذا غربت شمسك ، لتطلع كسيفةً في
سمائي . وأفلت أنجمك ، لتظهر فيها كايّة . وما
ذهبت ريحك إلا لتجىء قلبي تتناوح . ولا فرت
أيامك إلا لتلوذ بي مذعورة الخطأ . فأؤويها ،
وأطمئن خوفها ، ثم نجلس معاً وقد ودّعنا أيام

الصفاء ، تنفخ في ناينا الشاكي .

لم يمُت منك شيء ، إنما حالَ وتبدَّل . لم
تَسكني الأحداث لكنْ سكنتِ فؤادي . الخيط
الذي كان يصل بيننا في الحياة ، ارتدَّ إلى طَرَفه
الآخر مذ تراخت يدُك عنه ، جاذباً روحك
معه . جسدٌ واحدٌ ضمنا في النهاية .

فهل قهرنا البلى بهوانا لنجعل منه شيئاً خالداً ،
ونجعل عذابنا فيه أدياً ؟ فعندما طاردك الموت
كما يطارد الصيادون حمامة ، أيدت أن تقعي في
شباكها ، فهرعت إلى قلبي مهيضة الجناح ، واتخذت
منه وكرّاً لك ، لتبعثي فيه من نواحك الحزين ،
وتحرّكي بالأسى أوتاره ؟

٦٧

إن لحظات السرور التي متعتني بها في حبك ،
قد وضعت بين يديَّ أجمل ما في الدنيا من
زهور .

والليالي التي قضيتها مسهداً فيه ، قد طهرت
نفسى بما سكبت من عينيَّ من دموع ، وقربتنى
من الخلد خطوات .

فإذا ما تركتُ الآن دنيائى ، تركتها لا
شئَ فيها أشتيه ، واستقبلتُ الموت وقد ضمنتُ
لنفسى مقعداً فى الجنة .

إن مثلى كمثل زهرةٍ أمضتْ فى الهوى
ليلةً آثمةً ، فلما أتى الصبح غرقتْ فى الندى .
فإذا ما قطفها بعد ذلك عابرُ سبيل ، ليستروح
فيها عبيرَ الحب ، ذهبَتْ إليه وقد اغتسلتْ فى

دمعها ، فلم يَنْشَقْ فيها إلا نقاء .
ولولا حبك الذى أذاقنى حلوَ الحياة ومرَّها ،
لاجتزتُ سفرها دون أن أظفر بدنيا أو آخرة .

٦٨

إني لأراهم وأنا فوق سفينة الحياة أمخر
عُباب الزمن، يتراقصون على موجة اليوم الذي
رحلوا فيه .

وكلما طلعت علينا شمسُ يومٍ جديدٍ ،
ازدادت السفينة بي بُعداً ، حتى تضاءلت أمامي
وجوههم وخشيتُ أن تغيب صورهم عن عيني .
أولئك هم رفاقي الذين تخلفوا عن ركب
الحياة ، وآثروا الرحيل إلى الشاطئ المجهول
راكبين متّنين الموج .

فيا زماني لا تكُـرّ ، ويا سفيتي قفي ، فكل
يومٍ يمر يزيد نأياً ما بيننا .

ويا أمواجُ خذيني وألقيني على صخور
ذلك الشاطئ الذي ثَوَّوا فيه . واجمعي في
أجدائه جثثنا كما جمعت بيننا في الحياة .

قالت الدنيا ابتـهـج ! إننى نسيان ، وسأنسج
خيوطى على حزنك .

قلت ويحك ! أما كفـاك أن سلبتـنى
أحبابى ، حتى تراودينى على سلب ذكـراهم ؟
أو تريدن أن يصبح محواً هناءُ هاتيك السنين ؟
قالت أو لم يصبح بـعد ؟ ما هذه الأوهام
التي تدعوها ذكريات ؟ لقد ذهب كل شيء ،
ولم يبقَ إلا لوعتك . إننى ما جئت لأسرق
جديدا . وإنما جئتُ لأكفـكف دمعك ، وألفـ
فى شعاع فتنتى ضباباً يكسوك .

قلت بل لتسرق هذه التماثيل . تماثيل النور
التي أقتـها بفؤادى لمن فارقت . إنه تذهب
الأجسام . وأما النور الذى بعثته ، وأما الفكرة

التي عليها انطوت ، فباقية . أجل باقية ، لأنها
 أثيرٌ يَزِيغُ في أثير أرواحنا الخالد ، ويخلد معه .
 ولقد أزغتُ في الروح أرواحَ رفاقي الأئلى
 ودَّعوا ، بعد أن جسَّدتها على صورهم الراحلة ،
 وجعلتُ منها تماثيل . فأننا أحياء معهم الآن وأراهم .
 ويناجونى وأناجيهم كما كنا ، يومَ كانوا وكانت
 لهم أنفاسٌ تتردد . وما ضرَّنا أنَّا نتناجى بلغةٍ
 أشْفَ° ، ونلتقى على صورةٍ أعمق .

قلت ليكن° . إذن فلقد جئتُ لاسرق هذه
 التماثيل . لاسرق هذه الدُمى ، وأُحِلَّ محلها
 عرائسَ تنبض بالحياة . إن معى بالباب لحبًّا
 جديداً ينتظر . وسأدعوه ليقترحم فؤادك ، ويحطم
 أصنامك هذى . ثم يقيم مكانها تماثلاً من نوره ،
 لا يشوبه ذلك الهزال الذى خلعه عليها النأى .
 النأى الذى صار إليه ذووها .

قلت أتراوديني على أن أستبدل الأجدد° بالذى

هو أغرق ؟ مرهونةً بالقِدمِ هاتيكِ القِيمِ .
ولعمري ما اكتسبتُ تماثيلي قِيمها ، إلا لعِراقة
أربابها في قلبي . إن للقديمِ لحرمة . وما القِيمُ
إلا مِن تراكمِ السنين . لأنها الدهر عندئذٍ وقد
اكتنز من نفسه . لا جديدَ يساوي قديماً على
الاطلاق . نحن أنفسنا تلافيفُ أزمنةٍ تتراكم .
أوأقارنُ إذ كنتُ صبيّاً بما أنا عليه الآن ،
أنا الذي التهمتُ في قلبي ما سلختُ من أعوام ؟
وبعد هذا تريدني على أن أتذكرَ لقديمي ،
وأنسى الأُلى عاصروا مولدي ؟ ما أنتِ بجميلِ
صنيعك ، ولا بكريمِ محبتك . اذهبي ! أفقدتِ
جئتِ تعلينني الغدر ؟

قالت نعم ، فذلك شيمتي . لأنني نسيان ! وإني
لأنسى لأتبع لغيري أن ينساب . مَنْ ذا الذي
يستقبل موجي الجديد ويحتفي به ، إن بعثتُ
فؤادي في أثر الموج الذي مرّ ؟ من ذا الذي
يهشُّ في وجه براعمي التي تنفتح ، لو أنني تشاغلْتُ

بالبكاء على زهرى الذابل؟ لئن لم أنس ما فات ،
 لما استطعت أن أذكر ما يجيء . ذلك النسيان
 كتب على . بل إنه سر بقائي واطّرادى .
 ما أنا إلا زورقٌ مُضاء ، يسبح فوق بحرٍ من
 نسيان . هذا البحر المظلم الخِصم ، الذى
 يتشابه فى أعماقه الليل والنهار ، هو الذى يحمل
 ركّبي ويدفع موكبى . ولولاه ، لهويت لتوى إلى
 القاع ، إن كان حتماً أن يحف لينحسر عن
 جثث غرقاه ، الذين تريدنى على أن أظل أسبح
 بذكرهم .

قلت إذن سخرى غيرى لخساستك ، وسأخذ
 حذرى منك . سأوحد فى وجه سحرِكَ أبوابى ،
 وأصمُّ أذنى عن سماع أناشيدك . إني أعرف
 كيف تتحايلين على سرقة نقائسنا . إنك تأتيننا وفى
 يدك تلك الغادة التى خلّفتها الآن يبابى .
 ولستنى سأفرُّ من وجه حسنائك تلك . سأسكن
 صومعةً بالجبل ، وعندئذ آمنُ مكرَ شيطانتك .

لأن الشياطين ترهب صوامع النسك ، ولا تطأ
 الأمكنة المقدسة . وهنالك في ذلك المعبد المنعزل ،
 حيث لا أصنامَ إلا أحزاني ، سأكرّس أيامي
 لتلك الآلهة . سأسبّح لها كما تسبّح الرهبان ،
 وأصلي لها صلواتٍ وثني . لن تعلميني الغدر
 أبداً ، أيتها المرأة التي يسمونها الدنيا . نعم ،
 ما أنت إلا امرأة ، لأن اللؤم سواءٌ فيكما .
 الوداع !

وحزمتُ متاعى وذهبت . ونادت الدنيا
 بأعلى صوتها : ويحك ! لقد غلبتني !
 وبُحَّ صوتها على حين كنت أضرب بعصاي
 في القفار .

٧٠

هذا الوجود على سعته ، في قلبي أنا . إنه
نقطةٌ فيَّ كما أنا نقطةٌ فيه .

كل أطيافه ، لها في قلبي ظلالٌ مصغرة . وكل
أنغامه ، لها فيه أصداءٌ تتردد .

إنى لأستطيع في لحظات الإِشراق ، أن
أراه بنظرةٍ واحدة ، وأعبّر عنه بنغمةٍ واحدة .

إنه ينقصنا هذا المضاء ، لندرك أنه تحت
بصرنا . فلو استطعنا أن ننظر النظرة الخاطفة ،
ونعبّر التعبير الخاطف ، لَمَّا أَعْيَتْنَا رَحَابَتُهُ .

فلا جديدَ في الأمر ، ولا أسرارَ وراء
الحجب ، وإنما تكرارُ للعالمِ يعيش في نفوسنا .

وما اللغز إلا في ذلك العالم الصغير — فينا
نحن . هل نستطيع أن نفهم أنفسنا ؟

٧١

لستَ منظوماً أيها الكون، ولكنك منشورٌ
كشعرى .

فنجومك مبعثرة . ومختلفةُ الأطوال أنهارُك .
ولا شبهَ بين زهرةٍ فيك وزهرة . ولا تماثلَ
بين غصنٍ وغصن . لأنك لانهاىٌ أيها الكون ،
والنظام يحدُّك .

غير أن اتساقاً واحداً يشملك في النهاية ،
لأن إلهاً واحداً يستوى على كرسيك . وكذلك
شعرى ينتظمه نغمٌ واحدٌ كبيرٌ يجمع أشتاته .

لقد فهمتُ سرَّك أيها الكون . إنك لا تحب
الهندسة . لأنها المحدودية وذاك عجزٌ تنزهتَ
عنه . إنما أردتَ أن تكونَ ولا شكلَ لك ،
لكيما يكون لك من الأشكال ما لا يُحد .

ولكنك عدت فاندمجت في واحد ، لأنه
لا صورة إلاَّه لغير المحدود ، وإلا لحد منه
سواه .

ولقد سرتُ على نسقك جهدي ، لأن سرك
فيَّ وما يفتأ يوجهني ، لا فرق بيننا إلا ما بين
قدرتي وقدرتك .

فلم أستطع أن أخلق سماواتٍ ولا أرضينَ
لا تشابهَ بينها ، ولكنني تركتُ أشجارى غير
مشدَّبة ، وبحيرتي متعرجة الشواطئ ، وشِعري
منثورا .

ثم ساوقتُ بينه بنعْمى الواحد القرار ، كما
بثَّثت الانسجام يسُود فوضى عوالمك .

لا أغنيةَ جميلةَ لا يشيع منها الأسى ،
الذى ينبع في نفوسنا من عينٍ مجهولة .

لا زهرةَ لا يقطر منها الندى ، ولا سرورَ
لا يعبر عن نفسه بدمعةٍ يذرفها في صمت .

لا شيءَ البتّةَ لا يدين للألم . الوجود نفسه
كان ألماً كبيراً ما تزال تعانيه الخليقة . لأنه انفصالٌ
أليمٌ للكون عن الروح السّرمَد .

فإلى أن يلتئم الجرح ، ستظل الدنيا تقطر
مرارتها الخالدة في كل كأسٍ تشربها ، حتى لو
كانت من سلسيل .

٧٣

عندما نلقَى الجِمالَ ، يتصاعد الدَّمُ فرَحاً إلى
وجوهنا ، لأننا نرى فيه لَمَحَاتٍ من الله .

إننا في الدنيا سجناءُ تلك الحُجَرِ المغلقة التي
يَفْتَحُ نوافذَها الحب ، فما يلبث أن يبهر أعيننا
نورٌ خلاب ، يسافر إلينا خلال عوالمٍ بعيدة ،
ويستقرُّ على وجه محبوبنا .

وعندما يدعونا الله إلى اللقاء الكبير ، فنحطم
الأغلال وننطلق عَبْرَ السماوات ، نبصر وكأسطع
ما يكون ، الكوكبَ الدرِّيَّ الذي تناهى إلينا
على الدنيا سناه . ونشعر بسعادةٍ لا توصف عندما
تلفسنا أنوارَهُ ، وتدور بنا في فَلَـكِهِ الدوَّارِ .

٧٤

أيها الجمال المثلَّث يا جمال الله ، ما كان أنفه
 ذِيَّكَ الوجود ، لولا ما سقيتنا من حُبِّكَ !
 فياحبذا أنتَ تُغْرِقُ الخَلِيقَةَ في كأسِكَ ، فإذا
 الأَنامُ من هَواكَ سُكَارَى ، والطُيُورُ على
 دَوَّحِها تترنح .

حتى غزالُ الغابِ شَرَدَ ، وقد استهواه عِبَقُكَ
 المبهَم . فمضى يَقْطَعُ يومَهُ الوديانَ وَيَطْوِي
 الأكْصَمَ ، باحثاً عن عَطْرِ شُبَّهٍ لَهُ .

فيا من سَقِيتَ الدُّنْيَا بِحُبِّكَ خَبَّرَنِي : أين
 وجهُكَ ؟ أين منبعُ النورِ أين الزهرة التي تَبْعَثُ
 عَطْرَكَ ؟ وهل سَراكِ إذا آنَ الأوانُ ، أم نَظَلَ
 الدهرُ نَشَقِيَّ بعبادةِ معنَاكَ ، قانعِينَ بِشَقائِنا هذا
 الجميل ؟

لَا غِنَى فِي حُبِّ اللَّهِ ! وَأَنْفَضُ عَنْ نَفْسِي
 نَغْمَهَا الْحَيْدِسَ تَحْتَ طَيَّاتِ الزَّمَنِ ، مَذْ فَصَلْتَنِي
 الْأَحْدَاثُ عَنْ السَّرِّ الْأَعْظَمِ ، حَيْثُ لَا زَمَانَ أَنْ
 هُنَاكَ وَلَا مَكَانَ .

وَلَا رَسْلَ أَنْغَامِي تَسْبِجُ مَعَ الْكَوْنِ وَتَنْدَمِجُ
 فِي دَوْرَتِهِ ، فَأَصْبَحَ وَالْكَوْنَ شَيْئاً أَحْداً ، وَأَتَخَلَّصُ
 مِنْ ذَلِكَ النُّشُوزِ الْمُقِيتِ الَّذِي يُوْدِي إِلَيْهِ تَخَلُّفِي .
 إِنِّي لَأَحْسُ كُلَّمَا تَوَقَّفْتُ عَنْ الشَّدْوِ بَرَهَةً ،
 كَأَنِّي وَاقِفٌ وَالْفَلَكَ سَيَّارٌ . وَكَأَنِّي أَعِينُ
 الْكَوَاكِبَ تَنْظُرَ لِي شَرْراً ، وَتَسْتَحْشِنُنِي أَنْ أُمْسِكَ
 نَائِي وَأَتَنْظِمَ فِي فَرْقَةٍ عَازِفِكَ يَا اللَّهُ .

٧٦

نغمٌ أنا! مِن بعض نغم الكون. ولِربِّي
أَرْجِعْ.

نغمٌ أنا! حَوْلَ كَرِيسِيِّ العرشِ أَطُوفُ.
أَذْكَرُ وَأَسْبَحُ بِاسْمِهِ.

ولا أَمَلٌ، ولا أَفِيقُ. وأَظِلُّ دَهْرِي أَقْنُتُ.

نغمٌ أنا! فِي الصِّدْرِ حَبِيسٌ. فَتَى أَنْطَلَقُ؟

مَتَى تُفَكُّ قِيُودِي؟ فَيَعُودَ وَجُودِي. أَوْ
أَرَدَّ عَلَيْهِ؟

٧٧

إيه يا ناي المبجوح ! إن بُحَّتْكَ لَتَنبَع من
جرح عميق انبثق مع فجر الخليقة . جرح الألم
من فراقها للروح السَّرمَد .

ما أنا إلا مَتَمِّمٌ على فمك ، نفخَ الأغاني
التي شدا بها جدودُنا الأولون ، والتي سيتمُّها
أحفادنا من بَعْد .

رغبةٌ واحدةٌ جاشت في صدورنا جميعا ،
نموت وتحيا في أبنائنا يتوارثونها جيلاً عن
جيل . تلك هي الغزل في هذه الروح .

إننا حين نغنى لزهورنا المحبوبة ، نجعل الذات
المبهمة التي تستتر فيها ، والتي يعنينا لاشعورُنا
بالخطاب .

فإلى أن نرى على ضوء تباريحنا وجه الله الكريم ،
ستظل يا ناي تنوح ، وسيظل نغمك مبجوحا .

٧٨

تباركت يا الله ! إنك سبحانك كل شيء ،
وما عداك فرموز تنخلق على شرك الأَكْبَر .

ما أنا إلا روحك التي تسكنني ، والتي عاشت
من قبْلُ معك .

وما الورد إلا جمالك ، والغيث إلا رحمتك ،
والعواصف نقمتك ، والرعد جبّروتك .

ولو أن الطلاس حُلّت حلّ عليم ،
لأنك كشفت جميعها عن سرٍّ واحد ، هو أنت
يا الله .

٧٩

إِلَهِي إِنِّي طَائِرٌ غَرِيدٌ ، أُرِيدُ أَنْ أَصْعَدَ
إِلَى عُلَاكَ وَأَتَنَقَّلَ فِي فَرَادَيْسِكَ . أَكَلْتُ مِنْ ثَمَرِهَا
السَّحَرَى ، وَأَتَفَيَّأُ ظِلَّهَا السَّحَرَى . ثُمَّ أَشْدُو وَقَدْ
انْقَلَبْتُ أَنْغَامِي سَحَرِيَّةً ، لِأَجْجِدَ ذَاتَكَ .

إِلَهِي وَلَكِنِّي وَاهِنُ الْجَنَاحِ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ
الصُّعُودَ إِلَى سُدَّتِكَ . فَهَبْ لِي مِنْ نَغْمِي أَجْنَحَةً
قَوِيَّةً ، تَحْمِلُنِي وَتَوْصِلُنِي إِلَيْكَ .

إِلَهِي وَهَبْ لِي الْحَبَّ الَّذِي يَبْعَثُ فِي قَلْبِي
النَّغْمَ ، وَالْأَلَمَ الَّذِي يَحْلِيهِ وَيَرْقِّقُهُ ، وَيَجْعَلُهُ جَدِيرًا
بِسَمَائِكَ .

ثُمَّ اقْبَلْنِي يَا إِلَهِي فِي زَمْرَتِكَ ، وَأَسْكِنْنِي
جَنَّتِكَ ، وَاجْعَلْنِي مِنْ عِبَادِكَ الْمُقَرَّبِينَ .

٨٠

إِلَهِي هَيِّئْ لِي فِي حَفْلِ أَغَانِيكَ مَقْعِدًا
وَادْعُنِي إِلَيْهِ . أَجْلِسْ فِيهِ مَعَ حُورِكَ وَمَلَائِكَتِكَ
الْحَسَنَانِ أَعْبُدْكَ وَأَقْدِسْ لَكَ .

إِلَهِي وَاجْمَعْنِي عَلَى رِفَاقِي الْأُلَى فَارْقُوا
وَخَلِّقُوا لِي لَوْعَةً لَا تَبْرَأُ . وَأَعِدْ عَلَيْنَا
سَيِّرَ الْأَيَّامِ الَّتِي عَشْنَاهَا فِي فِجْرِ عَمْرُنَا جَنِبًا إِلَى
جَنِبٍ .

إِلَهِي وَاجْعَلْنِي نَغْمَةً تَسْبِّحُ فِي فَلَكِكَ
جِدًّا نَشْوَى مِنْ خَمَرِهَا — إِلَهِي وَلَا تَجْعَلْنِي
أَفِيقًا .

٨١

كَلَّا ، لَنْ نَكُونُ الْآنَ تِلْكَ الْآلِهَةِ . غَدَا ،
عِنْدَمَا نَمُوتُ ، نَصْبِيحُ شَيْئًا مَقْدَسًا .

سَيُسَدَّلُ السُّتَارُ عَلَى هَفَوَاتِنَا . وَحُسْنَاتُنَا
سَتَبْدُو مَآثِرَ .

وَسَيَنْدُمُ الْعَدُوُّ الَّذِي كَانَ حَارِبَنَا . وَيَحْنُ
الصَّدِيقُ حَتَّى إِلَى أَيَّامِ هِجْرَتِنَا .

سَيَنْدُ كَرْنَا الْكُلَ بِالْخَيْرِ . حَتَّى مَنْ إِلَيْهِ أَسَانَا ،
وَعَلَيْنَا حَقَّدَ .

سَيَنْظُرُونَ إِلَى صُورِنَا وَيَبْكُونَ . وَسَتُظَلُّ
أَصْوَاتُنَا تَطْنُ فِي آذَانِهِمْ .

لَنْ يَفْرَطُوا فِي مَلَابِسِنَا . أَوْ يَحْرِقُوا رَسَائِلَنَا .
أَزْهَارُنَا الذَّابِلَةُ ، سَيَحْفَظُونَهَا فِي قِوَامِ . مَسَابِحُنَا ،
عَصِيَّتِنَا ، سَتَغْدُو بَرَكَهَ .

حتى بقاينا المسجاة في الأرماس ، سيزورونها
وهم أطهار . وسيلمسون أحجار قبورنا كما يلمسون
شيئاً قابلاً للكسر . في رفيق جسم وفرط
حنان .

وسيتلون على أرواحنا الأوراد . ويقدمون
من نخب الزهر هدايا لنا . سيدلون عبثاً كل
ما يظنون أنهم يتقربون به زلفى إلينا .

تبارك الموت الذى يطهرنا ويجعل منا
قدسين ! حقاً إننا محبوبون ولنا منزلة ، ولكن
ينبغى أن نموت أولاً لنحظى بذلك .

ينبغى أن نموت أولاً لنظفر بذلك الذى كنا
نتوق إليه فى الدنيا ، ثم لا ننتفع به !

أجل ، ما الذى نفیده من صلوات تُقام أو
أدعية تُتلى على أرواحنا ؟ ما الذى نفیده من
تقديس آثارنا وتنديّة أجدائنا بالدموع ؟ ماذا
نأخذ من زهر أهدوه ، وفواكه تصدّقوا بها ؟

لا شيء . حتى الذكْرُ الحَسَنُ ، لن يندى
جفاف حلو قنا ، ولن يُحْيِي عظامنا النخِرة .
المجد الذي سنتركه ، والحسنات التي قدمتها
أيدينا ، لن تحيا بعدنا إلا في أذهان الأحياء .

أمّا نحن فسنظل نغطُّ في نومنا ، لا ندري
شيئاً عن تلك الآلهة التي راحوا يعبدونها فينا .
وسنمُدُّ إلينا الدنيا اليد التي كانت قبضتها عنا
في الحياة ، حين لا نصبح بحاجةٍ إليها .

وسيقول القبرُ الذي تشهد أحجاره : ليتها
فعلتْ هذا وسكانُ أحياءٍ ولهم أنفاسٌ تتردد !
ليتها فعلته يومَ كانت آذانهم تسمع وأعينهم
تري ! إذن لطربوا لأنغام الحنان تُسكب في
سمعهم ، وقرُّوا عيناً ببسمات الرضا .

أجل ليتها ! ولكنها تستكثر الحنان على
أبنائها ، فتحرمهم إياه أحياءً وتحملهم وهم موتى
جميله . وفي يومٍ لا يقوون فيه على رد الجميل .

رحمك أيتها الدنيا ! كفانا بالموت عجزا .
 كفانا به قلة حيلة . فعلام هذا الجميل ترهقين به
 عظامنا المهشمة ؟

عُودى إلى جهودك . وكفانا ما نلنا على
 يدك . لم تعد لنا أ كبادٌ قوية ، تحتل التوجع
 لك والاستماع إلى صرخات ضميرك . ولا أيدٍ
 طيعة نستطيع أن نؤمىء بها إليك شاكرين .
 فبالله دعينا ، ولا تُشعرينا ثِقَلَ الدين
 الذى لا نعرف كيف نوفيه .

نعم دعينا ، فإنما جئنا هنا لنستريح .
 وحسبك أنك أشقيتنا ونحن على ظهرك ، فلا
 تزعجينا ونحن فى جوفك رقود .

٨٢

ما أشقَّ المرحلة الأخيرة من الحياة، لولا هذه
الذكريات التي ترسب منها في أعماقنا، وترسل
أطيافها ترقص أمام عيوننا معيدةً عليها سِيرَ
الأيام التي انطوت، وتكونُ يومَ تقفر الحياة،
عتادنا في أيامنا الأخيرة. يومَ نجلس على حافة
عمرنا نتأمل سفائن الأيام وهي تنأى إلى ذلك
الشاطئ المجهول، الذي تذهب إليه إلى غير
عودة، لولا أطيافها التي تأتي أن تلحق بها،
والتي تترىث قليلاً لتونسنا في ساعة القحط
والإجداب.

٨٣

وهكذا تنقضى حياتي دون أن أصادف الفتاة
التي جئتُ الدنيا لأحبها .

وهكذا على كثرة ما شربتُ من خمر الغيّد ،
أرواح آخرَ اليوم بظمئى . وأموت على كثرة
ما غنّيت ، وبين جنبيّ أغاني حبيسة ، لم يُتَح
لي أن أشدو بها ، لأن الأصابع التي خلقت
لتجذب أنغامها من قلبي ، لم أهتدِ إليها في سفر
الحياة .

فيا من أتيتُ الدنيا لأشدو بأنغامك ، لقد
حانت ساعة الرحيل ولمّا أقضِ الوطر .

ويا أيتها الأنغام الشجية يا أشجى من كل ما
غنّيت ، ارقدى معي بسلام ، فلقد قدّر عليك إلاّ
تخرجي للوجود ، وأن تظلي سجيّة قلبي إلى الأبد .

٨٤

أَلَا اطْوِ يا قارب الحياة شراعك ، ثم
اهْوِ إلى القاع واسكنِ الظلمات .

لن تعود تتأرجح فوق الموج الراقص ، وظِلُّ
قلبك الخفاق تَيَّاهُ عليك .

لن يعود الماء يقطر من مجاذيفك كأنه
الدمع ، وَيَبْعَثُ في السكون بنقراته الخافتة .

لن يعود الخرير يَعْرِفُ حولك نغماته
القيثارية ، بين تصفيق العُباب الذي يلطم جوانبك
وينسلُّ هاربا .

لن تعود طيور الماء تحلّق فوقك ، أو تعبّر
أمامك من شاطئ لشاطئ ، وقد تناهى إلى
سمّحك خفقُ جناحها السريع .

لن تعود تسمع حُداءَ رفاقك الملاحين ،

وهم يَمْرُقون بقواربهم من جانبك ويختفون في الضباب .

لن تعود تمر بصفاف جديدة ، وتتفياً ظلالاً جديدة ، وتنشق عطوراً جديدة .

لن تعود ترى مرساك كلها أبت من رحلة ، وقد تَلَّالَتْ فوقه الأنوار ، ولوَّحتْ لك منه أيدٍ تعزُّها .

سيختفي كل ذلك ، وستمحو الظلماتُ ذكرياته منك ، فلا تعود ترى أو تذكّر .

٨٥

إيه أيها المُرْمِيع الرحيل ! قم ودّعْ أيام
صَحْوِكَ القصيرة ، ثم نَمِ الدهرَ كله .

لقد دأبَتِ الرِّيحُ الخَفِيفَةُ مصباحك ، وعمّا
قليل تطفئه فما تعود تراه يختلج . بل لن تحلم
به مرةً واحدةً في نومك الطويل ، على نحو ما
يحلم النيام بما عزَّ عليهم مناله .

ستنسى كل شيء عنه ، وستنسى الأيام
والليالي التي احترقت على شعلته ، باعثةً فرحتها
في وهَجٍ يتلاشى ، مخلّقةً أحزانها في هَبَابٍ .

وحتى هذا الهباب ستنساه ، بما كلفك حمّله من
مشقة ، وأزجى من عينيك من دموع . وستلفك
في ردائها إلى الأبد ، راحةٌ أشقى من الشقاء .
راحةٌ لا تعي نفسها لتدرك أنها راحة .

فوالسفا على صحوك الجميل ، وعلى ما رأيت
فيه وسمعت ! والسفا على الرياض وما حوت من
طير وزهر ! والسفا على الليل والنهار ! وعلى
الأهل والخلائن وعلى كل شيء !

قم افتح عينيك المكدودتين ، واشمل الدنيا
بنظرتك لآخر مرة ، وع منها قبل أن تنسى
ما استطعت .

قم انظر الزهر يتبسم للصباح ، ويحييه
بكموس عبيره . والطير يزفه بموسيقاه الخالدة ،
التي لم تذهب بجدتها العصور .

وانظر الشمس تتوج قم الجبال ، وتسكب
أشعتها على السفوح المَعْشوشِبة . والجداول
تجري في وديانها بين البرارى والحقول ، وقد
رقص فوقها الموج على نغم الخريف .

قم تزود من أهلك ومن أحببت ، وتزود
من نفسك التي اختلجت بين جنبيك ، والتي لن

تعود تضمها ضلوعك .

قم انظر كل شيء ، وودّع كل شيء ،
وابك كل شيء ، ثم ألو عنقك ونم .

٨٦

لقد مرت ساعاتُ الحُلُم ، وسيكون الباقي
من الليل بغير أحلام .
إني عائد إلى الظلمات التي انبثقتُ منها إلى
حين .

وسيكون نومي أعمق من قاع البحر ، وأطول
من سلاسل الآباد .
لن أعي فيه تغيّرَ الفصول ، ولا اختلافَ
الليل والنهار .

كل شيءٍ حولي سيتشابه . فلن أبصر غير
الظلام ، ولن يهمس في أذني إلا الصمت .
وسيقف سيرُ الزمن ، فلن تقصّر الأيامُ
التي تمرُّ من أمد نومي .
وسيمحو النسيانُ مني ذكرى الأحلام التي

رأيتها . فإذا ما سبحت فوق سفائن الأحياء ،
 أو مرّ بي من الكائنات عابر سبيل ، لا أذكر
 أني كنت يوماً بينها .

وسيكون وجودي كذباً باله وضعت في مهبط
 الريح ، متى انطفأت غرقت في الظلمات ونسيت
 نفسها .

٧٧

النور الذى احتبسَ زماناً فى جسدى ، قد
عجزَ هذا الجسد عن أن يظل ممسكاً به ، مذ
دبَّ فى أوصاله الوهن .

إنَّ هو إلا قليلٌ حتى تتراخى أصابعه ،
وينطلق الطائر الحبيس عائداً إلى سمائه .

إنكم لن تستطيعوا أن تفعلوا شيئاً من أجل ،
ولا أن تؤخروا زمان رحيلى . حتى لو تشبثتم
بأذيالى ، ستفقد روحى من بين أصابعكم وتطير .
فلا تحاولوا المستحيل . ولا تحزنوا لذهابى .
ما أنا إلا أسيرٌ فُكَّ من يديه القيد . ومغتربٌ
آب إلى وطنه .

فاتبهجوا لى ، وادعوا لى بالتوفيق فى رحلتى ،
عسانى لا أصادف فى طريق عقبات .

وتحملوا في جلد أيام الفراق . واذكروا
 أنها لا تدوم وإن طالت . وأتينا سنلتقى جميعاً في
 مهدنا الأول ، وعن كشب من وجه الله
 الكريم . وعندئذ لن نفترق مرة أخرى ، ولو
 تتابع علينا الدهور وكرت الأحقاب .

يا أيها الخلائق ! لقد دَقَ ناقوسى ودعانى
الداعى المجهول ، وإنى ذاهبٌ أَلَسِّ .

لُفُونى فى ثيابٍ بيض ، نقيّةٍ كالثلج .
وعطرونى بأطيب الأفاويه . حتى إذا أعدتمونى
للرحيل ، سَـيـرُوا فى رَكْـبـى حتى الجَدَث ، حيث
الحدُّ الفاصل بين الموت والحياة ، ثم اتركونى
أَتِمُّ الرحلة وحدى .

سأجتاز بحوراً من ضياء ، وأمرُّ خلال سماءاتٍ
عِدَّة ، ثم تُلُوح مدينة الأرواح ، وقد خرجتُ
وفودها لاستقبالى حاملاتٍ سلاّت الزهر .

وعندئذ سأصافح أياذى عزيزة ، وأرى
وجوهاً حُرمتُ طلعتها ردىاً من الزمن ، وأطفأ
غيابها النور فى عيني .

ثم أسير في موكب منها إلى مستقرّ الحفل ،
حيث الموائد ممدودة احتفاءً بالقادم الجديد ،
والخُورُ تعزف من حولها موسيقى الخلود .

وإذْ أَخَذَ بين الندامسى مقعدى ، سنتذاكر
ونحن نرشف كئوس السلسيل ، أياماً لنا على
الدنيا خلّت ، ونذكر بالخير من تخلف فيها من
إخواننا ، ليلحق بنا بعد حين .

٨٩

مثلها تصحو الشمسُ بعد النعاس،
 هل تُرى إنْ نمتُ الليلةُ أصحو؟
 وكما تبعث من حُلُمها قرا،
 هل تُرى إنْ أغمضَ جَفَنِي أحلم؟
 أم أنى أكون كنجمة هوى،
 ثم فقَدَ في الظلمة نفسه؟

٩٠

إليه تاجور!

يا من طالما للهوت تُقَتِّ ، ها أنت ذا
 تشرب كأسه . فبربك حدّثنا أحلوةً وجدتها
 أم مرة؟ وهل هي من كأس الحياة أَمَرٌّ ، أم
 لم تزل أحلى؟ وهل تريح هي القلوب المضناة
 فأراحت قلبك ، أم أن شاربها يطبّق شفّتيه
 الدهرَ على علقم؟

حدّثنا! وقُلْ لنا أرايتَ في سكراتها وجه
 ربك الكريم ، الذي طالما تغزلت فيه على الدنيا
 فأحسنْتَ الغزل ، أم أنك أغمضتَ لا أنت
 رأيتَه ولا بقيتَ لأشعارك؟

وقل لنا أأصبحتَ روحاً ترفرف وتجوّب
 السماواتِ العلّاء ، وتَرَى العشاق مِلءَ الرُّبَا

وعلى شواطئ الأنهار ، يتساقون الهوى على نغمات
مزمارك ، الذى مِتَّ وبقيت شاديةً فى فمِ
الزمن ؟

وهل تُنشدُهم من عُلَاك أغاني الخلود ،
وترشقهم بزهر الجنة النوراني ، فتحيى بنغم السماء
خلواتهم البريئة ، وتُباركها بأزهار الفراديس ؟
فيسمعوك كما يستمع الإنسان إلى هاتفٍ خفىٍّ ،
ويروا هداياك كأنها فقائيعُ من نورٍ تتساقط
على أجسامهم وتذوب ؟

هل تُرى تفعل ؟ أم مغمضٌ أنت فى جوف
الثرى ، وقد نسيتَ ما العشاق وما العشق ، وخبا
على جبهتك الذكاءُ فما عدتَ تلمح فى بريق عيونهم
الوجدَ ولا تقرأ الصبايةَ فى شفاههم المرتعشة ،
وماتت فى صدرك جذوة العواطف التى طالما
جلستَ تحترق على نارها المقدسة وتصوغ من
تلايف بخورها العطر أغانيك ، فما عدتَ
تحسُّ بإحساساتهم وتخفُّ لتحيثها ؟

كَلَامٌ وَأَيْتُ اللهِ ! فحاشاك أن تكون المائت
تحت التراب ، وقد تكهننت في دنياك بخلود
الروح ، ورأيت نفسك فيما رأيت من أحلام ،
حيًّا بعد الموت وفي كون ربك الفسيح تمرح .
وما مثلك من تُخدع روحه فيُشبهه له ويقول
غير الذي هو حق .

آه ولما كن ! لِيَكُنْ ما به تكهننت ، وأنت
روح تهيم وما تُرى . فما أنت أمامي الآن
إلا جثة . ولا أعرف عنك إلا أنك جثمان
سُجِّيَ في رمس . فواللهي عليك وعلى قلبك
الحنون يأكله التراب ! وبريق عينيك يغيب فيه
وينطفئ !

قُمْ تاجور ! قم تاجورُ وغننا كما غنيتنا
من قبل ، واشدُّ بالأشعار ورتِّل بالنغم .
واهزُّزْ قلوب العاشقين بترنيمك ، والمُوجِّعين
بك بنائك المبحوح .

يا من سموتَ عن أن يدانك فنانٌ ، من

بَعْدَكَ لِلأشعار يَقرضها ، وللزامير ينفخ فيها
 نَفْسَه السَّحري ؟ مَن بَعْدَكَ يلمس أوتار القلوب
 وعلى جِراحها يضع إصبعه ؟ من بَعْدَكَ يرمز
 بالطير والزهرة ، ويحُوك من خِبر الجدول
 نغمه ، ومن الجُمَان ينظم كلماته ؟ من بَعْدَكَ
 يفشى أسرار الوجود ، فيُسمعنا حديثَ القِراش
 لزهرة ، ونجوى النسيم لأغصانه ؟ ويزعم أن
 احمرار الشفق جِراح ، وأن الغيم همٌّ تراكم
 بالآفق ، والبرق بعض شوق السحاب ؟

إيِ والله لكم قرأتَ في الـكون من أسرار ،
 فقلْ لي ماذا عساك قارئٌ فيه بعد أن أصبحتَ
 نفسك سرًّا وفي ضميره ثويت ؟ ماذا يا من
 أفنيتَ عمرَكَ في البحث ، فلما اهتديتَ لكل شيء
 وحللتَ كل لغز ، التويت على نفسك ؟

وأسفاه ! إذن لن تعود تقرأ لنا أسراراً
 جديدة ، ولا تنفخُ في نايك وتُسمعنا أغانيَ
 جديدة ! كأنك لم تُبْقِ في مجال القول شيئاً

يقال فسكت° ! ولكن بعد أن أفعمت القلوب
كلها بأغانيك ، وملأت سمع التاريخ بترنيمك .

وإذن لن نعود نعال النفس برؤيتك ،
واستجلاء طاعتك التي عليها سيماء الأنبياء ، والتي
لم تبُرح ذهني منذ رأيته زائراً وطني ومغرداً
فيه ، فعرفتُك وإن لم تعرفني ، وعشتُ وإياك
في شعرك على رغم بُعد الشَّقَين .

فيا من سكنت السماء ألا تحنُّ وإن كنت
في رياض الخلد ترتع ، إلى زهرة من زهور
الثرى التي عشت قديماً بينها ونشقت رِيَّاهَا ؟

وهل تقبل يا من طالما أهديتنا من الزهر
سلاّت ، طاقة زهر متواضعة يقدمها إليك
معجبٌ بك ردّاً للجميل ؟ إن كان هذا نخذهَا
في هذا « العبير » ، والسلام عليك روحاً في أثر
الله تسبح ، وعلى أيامك في الدنيا سلام .

الصفحة	الكلمة	الشرح
٥	تلايف	لفائف
٦	برح	شدة الوجد
٦	نمش	خدش
٨	الاصيل	وقت العصر
٨	الشهب	شعل من النار كالنجوم
٨	الوسن	النوم
٩	يستل	يخطف
١٠	الاقاحى	جمع أقحوان وهو زهر أبيض
١٠	الدياجى	الظلمات
١٠	التعاويز	ما يتلى أو يكتب للوقاية من السحر
١٠	التمائم	[الاحجية]
١٠	الرقى	ما يتلى أو يكتب للوقاية من السحر
١١	ضرسج	صمغ بالخرقة
١١	الجورى	نسبة إلى ورد بلدة جور [جور] الأحمر
١١	البراعم	الزهر قبل التفتح
١١	الايك	الغصون
١٢	مبيض	مكسور
١٣	يزكو	يطيب
١٤	غفى	نعس
١٦	الغلالة	الثوب الشفاف

خطاط الحواجب	زجاج	١٧
غمر بالمطر	ضمنخ	١٧
الخلقة	البرية	١٨
الخط الناشئ من فرق الشعر	المفرق	١٨
حرقة الحب	الجوى	١٩
نظر	رنا	٢٢
رائحة	نسكة	٢٢
يلتمع في ارتعاش	يرف	٢٤
حطم	دغدغ	٢٤
التألق	الائلق	٢٤
السكران وهو طائر مفرد	[السكران]	٢٧
البقايا المتكسرة	حطام	٢٧
كثير الموج كبيره	اللجى	٢٩
شعر الجفون	الاهداب	٣٠
الفقايع	الحبيب	٣١
غصن	فنب	٣٤
قدم الاصل في نبل	العراقة	٣٥
المفرد	الفرد	٣٥
الاشنان	الشنايا	٣٧
العنق	الجيد	٣٧
السير ليلا	الاسراء	٣٩
[بنور]	بلور	٣٩

الدغل	الشجر الملتف	٣٩
اللما	الريق	٤٠
البيان	[البيانو]	٤٤
مجامر	أمكنة الجمر	٤٥
[البدال]	أداة في البيانو لتعليق النغم أو خفضه	٤٥
أرجح	فعل مشتق من الأرجوحة	٤٥
غبت	عقب	٤٩
إبان	حين	٥٠
رجراج	مترجرج	٥٠
القر	البرد الشديد	٥١
حسر	أزاح	٥٢
ذياك	مصغر ذاك	٥٣
نثار	ما تساقط	٥٤
الدف	نوع من الرق	٥٤
مناقع	مستنقعات	٥٥
البرد	قطع الثلج المتساقطة مع المطر	٥٥
النضيد	المصفف	٥٧
العندم	نبات أحمر	٥٧
أصمى	أصاب وأردى	٥٨
يأسن	يركد	٦٢
الارغن	نوع من المزامير	٦٤
الريا	العطر	٦٥

مقن	ظهر	٧٠
الارزيز	التلفون	٧٢
إزار	ثوب	٨٠
يصوع	يفوح	٨٤
عير	عطر	٨٧
الشحارير	نوع من الطيور المفردة	٨٨
تقياً	استظل	٨٩
الاسمال	الثياب البالية	٩٧
رمونا	رواية سينمائية مشهورة	١٠١
المحمل	القطيفة	١٠١
الحدادة	جمع حداد وهو مغنى الركب	١٠٧
يدسق	يطول	١١٨
يذرى	يبعثر	١٢١
الاجداث	القبور	١٢٣
عباب	الموج المتلاطم	١٢٦
الدمى	صغار التماثيل كالعرائس	١٢٨
السرمد	الدائم	١٣٥
عيق	عطر	١٣٧
الاكم	ما ارتفع من الارض	١٣٧
سدة	عتبة	١٤٢
الارماس	القبور	١٤٥
الجمان	الؤلؤ	١٦٤

كتب المؤلف

العبر	مقطوعات من الشعر المنشور .
الأنغية	مقطوعات من الشعر المنشور .
البلبل	مقطوعات من الشعر المنشور . أقرته وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .
الزنبقة	مقطوعات من الشعر المنشور . أقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .
سهر	مأساة غرامية . أقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .
وحيد [طبعة ثانية]	مأساة غرامية . أقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها . واشترت حق تمثيلها الفرقة القومية .
مناجاة	مقطوعات من الشعر المنشور . [نفد]
البطالة	بحث اجتماعي . [نفد]

تطلب من ناشرها
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

تمت الطبعة الأولى من العبير

في ٢٥ يناير سنة ١٩٤١

مطبعة حجازي بالقاهرة